نشأة العلوم الطبيعية عند المسلمين في العصر الأموي

تأليف

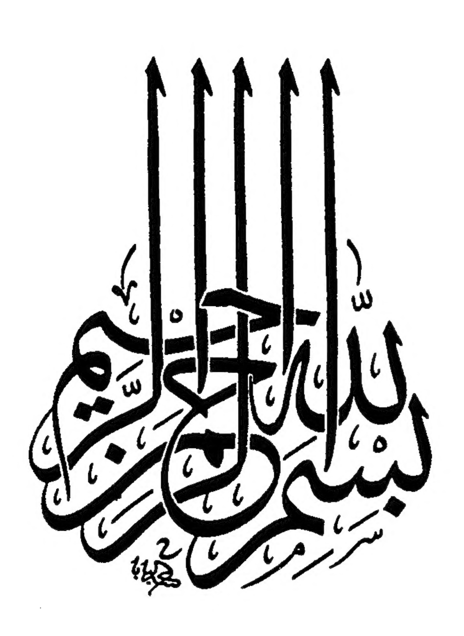
لطف الله قاري

تقديم الأستاذ الدكتور عبد الحليم منتصر

تنفيذ دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع
الرياض ص.ب ١٥٩٠ ت ٤٧٧٧٢٦٩

الطبعة الأولى
١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

تنفيذ
دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع





نشأة العلوم الطبيعية
عند المسلمين في العصر الأموي

تقـديم
للدكتور عبد الحليم منتصر

عرّف العلماء العرب العلوم الطبيعية بأنها تلك التي تحتاج إلى مشاهدة وتجربة واختبار واعترف العالم أجمع بأن الينبوع الأول للعلوم الطبيعية، هو العصر العربي الإسلامي، الذي اشتهر من علمائه عشرات، يقرنون إلى أعاظم العلماء في كل عصر وآن، من أمثال ابن الهيثم، وابن سينا، والبيروني، والزهراوي، وابن زهر، والكندي، وابن البيطار والفارابي، والأنطاكي، والدينوري، وابن العوام، وابن يونس، والخوارزمي، والعاملي، والقلصادي، والرازي، وابن ماجد، وجابر بن حيان، وابن وحشية، وابن الشاطر، والجاحظ وغيرهم كثير وقد استطاعت الدولة العربية الإسلامية، أن تمتد من حدود الصين شرقاً إلى حدود فرنسا غرباً، في أقل من قرن من الزمان، إنما كان ذلك كذلك بالإسلام أولاً، وبالعلم ثانياً، بالإسلام ديناً وقيماً وخلقاً وأمانة وبالعلم بحثاً ودراسة وتجربة وثقافة.

وكانت هذه النهضة العارمة قد بلغت الذروة في العصر العباسي، ومعظم هؤلاء ممن ذكرنا ومن لم نذكر من العلماء المتخصصين في العلوم الطبيعية من كيمياء وفيزيقا، ورياضيات، وفلك، وأحياء، وطب، وهندسة، وصيدلة وغيرها، إنما ذاع صيتهم في العصر العباسي، وخاصة بعد عصر الترجمة الذي بلغ ذروته في عصر المأمون.

على أن هذه الشجرة العلمية السامقة الباسقة، التي يستظل العالم بظلها في العصر الحاضر والتي زرع بذورها أمثال من ذكرنا من العلماء، لابد وأن يكون قد سبقهم من أعدّ البذور الصالحة، وهيأ التربة، وماء الري، والسماد، وما إلى ذلك، حتى نبت وتورق، ثم تزهر وتثمر على هذا النمو الذي نرى منذ انتقلت هذه الثمار إلى العصر النهضة الأوروبية ثم العصر الحاضر، فتلقفها أمثال نيوتنن، وكوبرنيق، وفرانسس باكون، وغيرهم من علماء النهضة الأوروبية، وقد ظلت كتب بعض العلماء العرب والمسلمين، تدرس في جامعات أوروبا عدة قرون، وتعتبر المراجع الرئيسة في الطب والصيدلة والكيمياء والرياضيات والفلك والنبات والحيوان.

وليس معنى ذلك أننا ننكر فضل علماء النهضة الأوروبية وعلماء العصر الحاضر، وما قدموه وطوروه من معارف وحقائق علمية، ليس إلى حصرها من سبيل، ولكن من الخير أن نذكر الرواد الأوائل لهذه النهضة العلمية العارمة في هذا العصر، الذي يسمى عصر انفجار المعرفة حيث نكاد نسمع في كل يوم بل في كل ساعة عن كل جديد من مذياع، وتلفاز، ورادار، وأقمار صناعية، ومراكب فضاء، ورحلات فضائية، وهبوط على سطح القمر، والكواكب، وحرب الفضاء.. وما إلى ذلك من طاقة نووية وغيرها.

لقد أراد مؤلف هذا الكتاب أن يوجد الحلقة المفقودة في هذه السلسلة المتنامية وهي نشأة العلوم الطبيعية عند المسلمين في العصر الأموي. فلابد أن العلوم في العصر العباسي، قد أخذت شيئاً من العصر الأموي، كما نقل العصر الأموي عما سبقه من عصر الصحابة رضوان الله عليهم. وما سبقه في عصر الجاهلية.

ولاشك أنه كان للقرآن الكريم الفضل كل الفضل، في توجيه نظر الإنسان إلى الحقائق العلمية والكونية وتمجيد العلم والعلماء مما نشر عند المسلمين حب العلم والمعرفة، كقوله تعالى: ﴿**اقرأ**﴾، ﴿**وهل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون**﴾، وقوله: ﴿**أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت * وإلى السماء كيف رفعت * وإلى الجبال كيف نصبت * وإلى الأرض كيف سطحت**﴾، وقوله: ﴿**فلينظر الإنسان مما خلق * خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب**﴾، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس * ولكن أكثر الناس لايعلمون**﴾ إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي تدل على عظمة الخالق، وتدعو الإنسان إلى البحث والدرس والنظر والتجربة.

وقد أجاد المؤلف في فصول كتابه المختلفة. عرض صورة من صور الثقافة في ذلك العصر، ثم تحدث عن الثقافات الأجنبية وعرض نماذج من الثقافات المختلفة في الفصل الثالث، ثم انتقل إلى دور الترجمة في هذه النهضة. ثم خصص بعض الفصول لعلوم مختلفة من فلك، وكيمياء، وطب، وحيوان، ثم التقنية والصناعات، ثم الهندسة والعمران والمساجد والقصور، والترع، والسدود، وخرائط المدن، والفسيفساء والأعمدة الرخامية.

وتحدث في الفصل الحادي عشر، عن أثر العهد الأموي على العهد العباسي، وكيف أن الحركة العلمية في العصر العباسي، هي امتداد لما كان في العصر الأموي، كما أن النهضة العلمية الأوروبية هي امتداد للحركة العلمية في العصر العربي الإسلامي.

وختم المؤلف كتابه بثلاثة ملاحق، الأول عن التنجيم في العصر الجاهلي، والثاني عن كتاب الراهب، والثالث عن خالد بن يزيد ودوره في الحركة العلمية.

وكذلك انتظم عقد هذه السلسلة الرائعة التي تحكى حركة تطور النهضة العلمية وتقدمها من عصر إلى عصر.

ما أشد حرصي ودعوتي إلى تدريس تاريخ العلم عند العرب، لتعرف الأجيال الصاعدة دور أمتهم العربية الإسلامية في هذه النهضة العلمية المباركة.

والله ولي التوفيق،،،

د. عبد الحليم منتصر

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسوله، وبعد : فهذا فصل من فصول تاريخ العلم عند المسلمين لم يكتب من قبل، ويُبحث لأول مرة في كتاب مستقل.إذ إن ماورد فيه لدى الباحثين الآخرين ليس سوى أسطر، وسبب ذلك هو أن تاريخ العلوم الطبيعية الاسلامية موضوع جديد، بدأ به بعض المستشرقين في أواخر القرن التاسع عشر، ثم بدأ بعض العرب بالاهتمام به في هذا القرن الميلادي.

أما في مكتبة التراث الإسلامي فلا نجد سوى بضعة كتب محددة معروفة، ورد فيها تراجم أصحاب الطبيعيات. وسبب عدم اهتمام المؤرخين المسلمين بعلماء الطبيعيات يرجع في رأيي إلى أن العلم الطبيعي لم تكن تطبيقاته المتعلقة بحياة الناس اليومية تمس أنظارهم كما هو الحال اليوم؛ فلم تكن هناك ثورة في التكنولوجيا مثل التي نحياها في زماننا هذا، حيث دخلت المبتكرات العلمية حياة كل فرد فينا، وجعلتنا نعيش في دنيا العلم تحيط بنا من كل جانب.

ولذلك نرى في تراثنا الإسلامي المجلدات الضخمة عن الشعراء والأدباء والفقهاء والمحدثين والمفسرين والنحويين واللغويين؛ وذلك لأن الحياة الثقافية لتلك الشعوب كانت تدور حول علوم الدين واللغة. وهذه من نعم الله على عباده؛ إذ الاهتمام بعلوم القرآن والحديث دون الاهتمام بالطبيعيات أو غيرها هو من الوسائل التي سخرها الله سبحانه ليحفظ لنا الشريعة المطهرة، وعلوم الدين الحنيف.

فلما بدأ الاهتمام بتاريخ العلم عند المسلمين في عصرنا الحديث، انقسم الباحثون حول البداية الصلبة لانطلاقة حركة العلوم الطبيعية عند المسلمين. فمنهم من قال إنها كانت في عهد المنصور العباسي، ومنهم من قال بأنها كانت في عهد المأمون. وتعوّد كثير من الذين كتبوا في هذا الفن أن يشيروا إشارة عابرة إلى ماقبل عهد المأمون ثم يبدأوا الحديث عن عصر المأمون وما بعده.

والسبب في هذا أن مؤرخي العلوم الطبيعية في تراثنا الإسلامي، لم يدونوا تاريخ تلك العلوم قبل ذلك العهد، فالمعلومات أوفر عن ذلك العهد مما بعده، حيث لم يبدأ السلف بالتنبه إلى مجال العلوم الطبيعية إلا بعد أن تفشت في المجتمع آنذاك واهتم بها الكثيرون. فتجد واضحاً في «الفهرست» للنديم وفي «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» و«إخبار العلماء بأخبار الحكماء» وغيرها.. أن الاهتمام بسير علماء الطبيعيات قليل متقطع قبل عهد المأمون. ثم تبدأ سلسلة التراجم مفصلة متصلة بعد ذلك.

ولذلك ظن البعض أن عهد الدولة الأموية كان عهد بداوة بعيداً عن الحضارة، لم يهتم الناس فيه إلى جانب علوم الشريعة بغير الشعر واللغة. فإذا قيل لهؤلاء: كيف إذن كانت بداية الاهتمام بالعلوم الطبيعية؟ قالوا: في العهد العباسي. فإذا قيل: وهل يبرز الاهتمام هكذا بشكل مفاجيء دون أن تسبقه مقدمات مهدت لظهوره؟ لم نجد الجواب الشافي.

فكتابنا هذا يبحث عن البداية في انطلاقة حركة العلوم الطبيعية في تاريخ الاسلام. وقضى فيه أحد الهواة في هذا المجال سنوات عدة من البحث الصامت، فكانت النتيجة هي مايراه القارىء خلال الفصول التالية. حيث سيرى المعلومات التي تحتويها تلك الفصول قد جمعت من

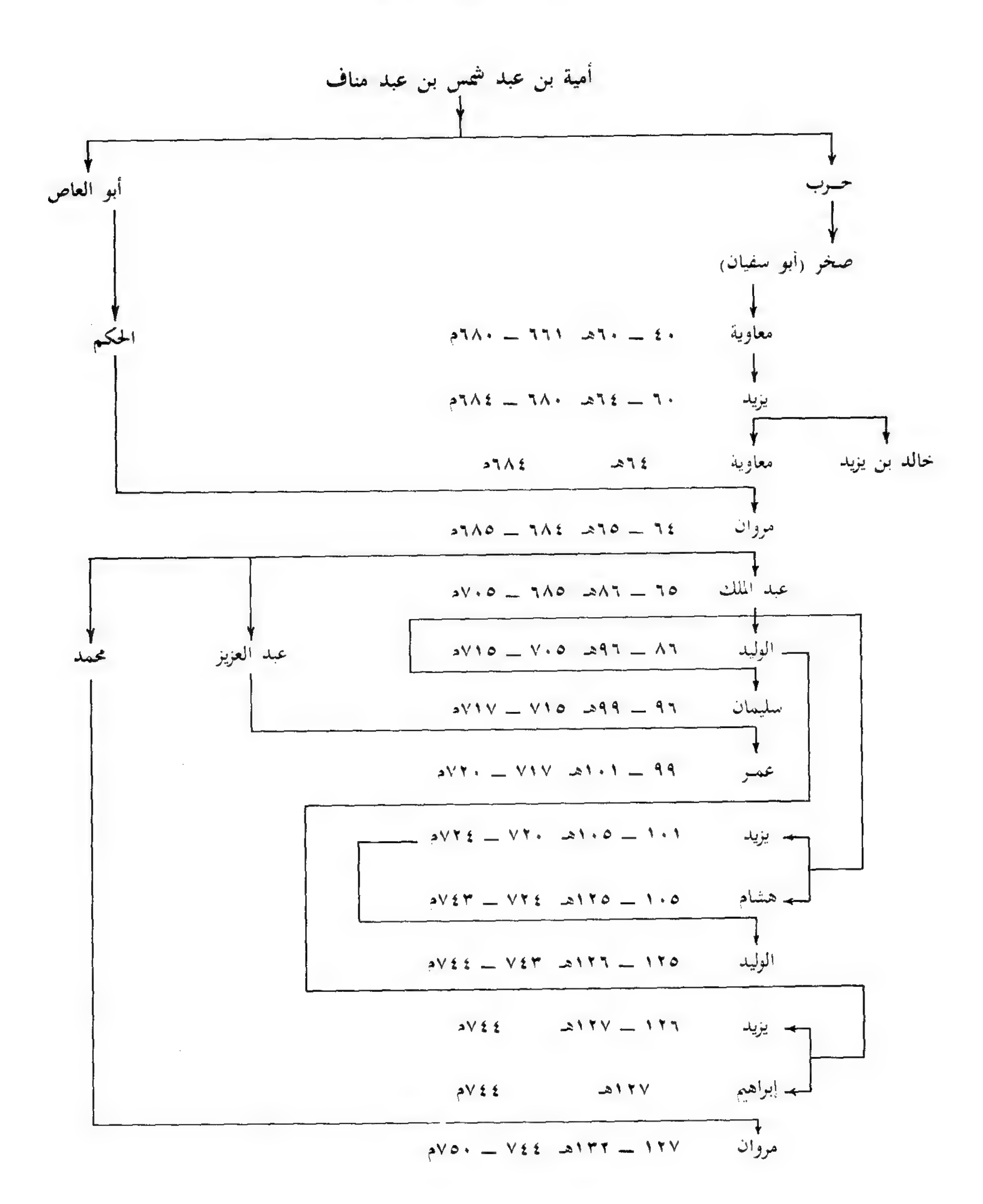
مصادر شتى من كتب مطبوعة ومخطوطات ومجلات عادية. وأن تلك المعلومات وردت مغلوطة في كثير من الأحيان، فاقتضى المجال تصحيحها ونقدها. وأحياناً ترد المعلومات واضحة الخطأ لايحتمل تصديقها، فنسردها في آخر كل فصل من فصول الكتاب، مع توضيح عدم الاعتماد عليها.

وطبيعي في موضوع جديد كهذا ألاّ يكون خالياً من الأخطاء، فهذه طبيعة البشر. والمرجو من الأساتذة الباحثين تبيان أخطاء الكتاب، والمرجو كذلك أن يبعث كل باحث فاضل بنسخة من نقده إلى العنوان المذكور بأدناه لكي يطلع عليها المؤلف فيصلح من عيوبه، وجزاكم الله خيراً.

وقد يلاحظ القارىء أنني ذكرت أسماء الباحثين عند اقتباس آرائهم مجردة من الألقاب مثل دكتور أو أستاذ أو غير ذلك، وهذا لاينقص من أقدارهم، وإنما كان ذلك لرفع شأنهم. فقد ساويتهم في ذلك بالعلماء من أسلافنا في التاريخ الإسلامي. فلم يكن ابن سينا دكتوراً، ولكن يكفيه أنه ابن سينا فحسب. ولم يكن ابن تيمية برفسوراً، ولكنه أستاذ البروفسورات.

لطف الله قاري
ص.ب ٣٠٣٤٤ ينبع الصناعية

جدول الخلفاء الأمويين





الفصل الأول

الثقافة العربية
في العصر الأموي



في الفصول الثلاثة الأولى من هذا الكتاب، نحاول التعرف إلى العوامل التي ساعدت على بدء اهتمام المسلمين بالعلوم الطبيعية، وإلى الجو الثقافي الذي كان سائداً بعد الفتوح الاسلامية بحيث أدى ذلك الجو إلى قيام نهضة علمية بعد ذلك. فنبدأ في هذا الفصل بالتعرف إلى الثقافة عند عرب ذلك الزمان، نعقب ذلك بنظرة على ماكان عند الأمم الأخرى في البلاد المفتوحة من علوم ومعارف. وبعد ذلك سنشاهد معاً كيف تمازجت الثقافات المختلفة مع بعضها، وكيف أدى ذلك إلى بدء اهتمام المسلمين بالعلوم الطبيعية.

تراث العصر الجاهلي

عندما خرج العرب من جزيرتهم يفتحون البلدان، كان لديهم إلمام ببعض المعارف المتعلقة بالطبيعة، حيث كانت لديهم معرفة بالفلك، ومواقع النجوم. وهيئة السماء، ورصد الجو، وتوقع الطقس. وعرفوا شيئاً من الطب البسيط تجمّع لديهم بالتجربة، مثل علاج الجرب عند الحيوان، ومداواة الجروح، واستعمال الأعشاب، والكي في التداوي. وقد فصل الباحثون في تاريخ العصر الجاهلي الحديث عن معارف عرب الجاهلية في أمور الطبيعة.

أما الخرافات التي كان كهان الجاهلية يقحمونها على الفلك والطب، مثل ادعاء تأثر النجوم على الحوادث الأرضية، والتمائم التي استعملوها لرقية المريض، فقد حاربها دين الله الذي لايسمح إلا بالعلم الحقيقي المبني على التجربة والبرهان. وسيرد في آخر الكتاب فصل ملحق عن التنجيم في العصر الجاهلي والأحاديث النبوية الشريفة التي نهت عنه.

وقد اتصل بعض المتعلمين من أهل الجاهلية بالثقافات الأجنبية. ومن أولئك: الحارث بن كلدة الثقفي، الذي سيرد ذكره في الفصل السابع عند حديثنا عن الطب. ومنهم قس بن ساعدة الأيادي، الخطيب الواعظ المشهور، كان أسقف نجران، وكان يأتي إلى بلاد الروم، وورد مرة إلى ملك الروم[١]. ومنهم ورقة بن نوفل وأمية بن أبي الصلت، اللذان درسا كتب الديانات وكفرا بالأصنام، وقد لحق كل منهما الإسلام، فأما أمية فلم يسلم وأما ورقة فقد صدق بنبوة الرسول ﷺ. ولكن لم يثبت إسلامه. ومنهم عبيد بن شرية الجرهمي، ووهب بن منبه، اللذان سيرد ذكرهما.

هذا التراث من معارف عرب الجاهلية، سنفترض أنه كان معروفاً عند العرب في صدر الإسلام وفي العهد الأموي. وافتراضنا هذا يدعمه ماورد عن الأطباء البدو الذين عاشوا بعد ظهور الإسلام، وعن الأشعار التي ورد فيها ذكر الأنواء، وغير ذلك مما سيرد في الفصول التالية. إلا أن الباعث الأهم في انطلاقة الحركة العلمية لدى عرب ذلك الزمان، كان نابعاً من العلوم النظرية التي انبعثت أصلاً عن الدين الإسلامي. فالثقافة التي انتشرت بين العرب وغيرهم من المسلمين كانت في مبدأ أمرها علوم الدين؛ من دراسة للقرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، ثم نشأت علوم اللغة التي كان الباعث لنشأتها صون القرآن الكريم من الخطأ في تلاوته[٢]. ومن علوم اللغة نشأ الأدب، والأدب في ذلك العصر كان يعني الأخذ من كل فن بطرف. ومن ذلك بدأ الميل إلى التعرف على كل غريب في العالم، والتثقف بكل علم نادر. فنشأ بذلك الميل إلى العلوم الطبيعية.

---

(١) المحاسن والمساويء للتنوخي.

(٢) الفهرست للنديم ص ٤٥،٤٦.

التعليم عند العرب

ويسوقنا الحديث عن ثقافة العرب في ذلك العصر إلى الاطلاع على التعليم عندهم، ذلك التعليم الذي كان في معظمه دينياً. ولكنه كان الأساس الأول في الثقافة التي يحصل عليها المتعلم. فبعد أن يعرف الناشيء القراءة والكتابة، ويحفظ شيئاً من القرآن الكريم، ويروي طرفاً من أحاديث الرسول ﷺ، يبدأ ذلك التلميذ يتجه بنفسه، وحسب ميوله، إلى التخصص في ناحية ما من نواحي ثقافة ذلك العصر.

كان مكان التعليم هو الكتاتيب والمساجد معاً على الأرجح. وقد اقتبس العرب فكرة الكتاتيب من الأمم الأخرى، إذ كانت الكتاتيب موجودة لدى الأمم الأخرى في ذلك العصر. روى ابن خلكان أن معروف ابن فيروز «كان أبواه نصرانيين، فأسلماه إلى مؤدبهم وهو صبي»[1].

أما كتاتيب العرب فقد ورد عنها أكثر من نص. رووا أن الضحاك بن مزاحم الهلالي «كان فقيه مكتب عظيم، فيه ثلاثة آلاف صبي. وكان يركب حماراً ويدور عليهم إذا عيي»[2].

وكان الكميت والطرمّاح الشاعران معلمي صبيان. وكذلك كان الحجاج بن يوسف الثقفي وأبوه يعلمان الصبيان بالطائف. وعبد الحميد ابن يحيى الكاتب الوزير بدأ حياته معلم صبيان[3].

وحدثوا أن أبا مسلم الخراساني (الذي ساهم في القضاء على الدولة الأموية فيما بعد) نشأ عند عيسى بن معقل، «فلما ترعرع اختلف مع ولده إلى المكتب»[4].

---

(١) وفيات الأعيان ٤ /٣١٩.

(٢) شذرات الذهب ١/١٠٧.

(٣) الفهرست ١٣١.

(٤) وفيات الأعيان ٢ /٣٢٥.

أما التعليم في المساجد فقد روي أن الكميت الشاعر كان يعلم الصبيان في مسجد بالكوفة[1].

آراء أحمد شلبي

وهنا نقف قليلاً مع أحمد شلبي في كتابه «تاريخ التربية في الإسلام» لنستعرض بعض آرائه عن التعليم في ذلك العصر ونناقشها:

١ ــ قال أحمد شلبي بأن تعليم الصبيان في ذلك العصر لم يكن يحتوي على تعليم القرآن والدين. ولا أدري كيف سمح لنفسه بهذا الرأي الغريب! فالمعروف أن النبي ﷺ أوصى أمته قائلاً: «مروا أولادكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر».

فكيف تكون صلاة بدون معرفة شيء من القرآن والدين؟ وقد كان خلفاء رسول الله ﷺ يوصون بتعليم القرآن. وأقوال عمر بن الخطاب رضي الله عنه كثيرة في هذا الصدد.

٢ ــ قال متحدثاً عن أماكن التعليم. بأن تعليم الصبيان لم يكن بالمساجد، وإنما كان في البيوت.

وقد يكون رأيه هذا صحيحاً في العصور التالية للعصر الأموي. أما في ذلك العصر، والذي قبله، فالمسلمون لم يكونوا قد وصلوا إلى رفاهية تجعلهم يخصصون أماكن لتعليم الصغار وأخرى لتعليم الكبار. فحيث تيسر المكان كان التعليم. والنصوص تؤيد هذا الكلام، حيث روينا قبل أسطر ماجاء عن الكميت الشاعر وأنه كان يعلم الصبيان بأحد مساجد الكوفة.

٣ ــ قال بأن التعليم في بدايته كان يقوم به الذميون. ولم يورد أي نص يؤيد ذلك سوى استشهاده بقصة أسرى معركة بدر الذين فرض

(١) الأغاني ١٦ /٣٢٨.

الرسول ﷺ على كل واحد منهم تعليم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة لكي يفتدوا أنفسهم من الأسر.

وهذا افتراض ضعيف، لأن الصبي كان يلقّن أول مايلقّن أمور الصلاة كما أسلفنا، فكيف نعتمد على الذميين في ذلك؟ ثم إن أسرى بدر لم يكونوا ذميين، وكانوا يعلمون الصبيان في مسجد الرسول ﷺ وبمرأى ومسمع من المسلمين. أما أن يجلس ذمي في بيته فيأتي إليه صبيان المسلمين فلم نعثر له على نص يؤيده ونستطيع الاعتماد عليه.

وقبل أن أنتقل عن الحديث في تعليم الصغار، أود ذكر أن طبقة الحكام في ذلك العصر كان لهم تعليمهم الخاص، فكان الحاكم يختار مؤدباً لأولاده من المثقفين، فيأتي إلى القصر ويعلم أولاد ذلك الحاكم.

العلوم العربية في ذلك العصر

هذا ماكان من تعليم الصغار. أما تعليم الكبار، فقد كان في البداية يعتمد على علوم الدين الإسلامي، من تفسير وحديث وفقه. ثم لما رأى المسلمون أن الأعاجم اعتنقوا الإسلام وصاروا بحاجة إلى ضبط ألسنتهم بالقرآن والعربية، نشأ من ذلك النحو وعلوم العربية، وقد أدت علوم العربية إلى الاستشهاد بأقوال الأعراب، فنشأت رواية الشعر والأخبار (والأخبار أدت إلى تكون علم التاريخ فيما بعد). ومن الاهتمام بالشعر نشأ علم العروض الذي اخترعه الخليل بن أحمد الفراهيدي في أواخر ذلك العصر.

وكان مكان تعليم الكبار في ذلك العصر هو المساجد بلا نزاع، حيث كان المسجد مكان اجتماع الناس في الأمور العامة. وبالتالي فهو أنسب مكان لعقد حلقات التعليم. فكانت حلقات التعليم منتشرة في مكة والمدينة والبصرة والكوفة ودمشق ومصر والري وخرسان والطائف والرقة.

فانتشر الاهتمام بعلوم الدين كالتفسير والحديث والفقه. وعقد العلماء من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين حلقات للتعليم كان من أشهرها حلقة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وحلقة تلميذه عطاء بن رباح بالمسجد الحرام بمكة المكرمة، وحلقات بالمدينة المنورة الربيعة الرأي، وتلميذه مالك بن أنس وجعفر الصادق وسعيد بن المسيب. وفي العراق كانت مدرسة الحسن البصري وحسن بن ذكوان وعبد الكريم بن أبي مخارق[1]. بالإضافة إلى مشاهير علماء التابعين مثل سفيان الثوري وقتادة وسعيد بن جبير. وفي مصر عرف يزيد بن أبي حبيب والليث بن سعد. وفي الشام عرف الأوزاعي والزهري.

وما أتى العصر الأموي على نهايته حتى كانت العلوم الإسلامية ثم علوم اللغة العربية قد وضعت قواعدها وضبطت أصولها. وقد نشأت بعض المذاهب الإسلامية على نهاية هذا العصر، مثل مذهب مالك ومذهب جعفر الصادق. وضبط علم النحو في ذلك العصر، ونشأ علم العروض، وبدأ الاهتمام برواية الأخبار حيث أدى ذلك إلى تكون علم التاريخ فيما بعد. فكل هذه الإنجازات من الفخامة بحيث لانستغرب بعد ذلك اهتمام العرب بالعلوم الطبيعية. لأن من وصل بالثقافة إلى ذلك الحد لايستغرب منه الاطلاع على علوم الغير.

المكتبات في ذلك العصر

ومن الدلائل الهامة على اتساع نطاق ثقافة العرب كان انتشار الكتب في ذلك العصر. وهو انتشار ظل محدوداً بسبب ندرة الورق، حيث كان الورق يصنع من نبات البردي بكميات محدودة، تبعاً لمحدودية النبات نفسه، وبهذا كان ثمنه غالياً والحصول عليه صعباً[2]. فهذا العامل هو

(١) «البيان والتبيين» للجاحظ و«الأعلام» للزركلي.

(٢) «الوراقة والوراقون» للطف الله قاري. ص ١٤ ومابعدها.

الذي جعل مدونات الحركة العلمية في ذلك العصر أقل من طموحات العلماء. فكان أكثر مايتركه العالم في ذلك الزمان هو تلاميذ أخذوا عنه علمه مشافهة، وهذا مايجعلنا نبدأ حديثنا عن نشأة المكتبات بالطبقة الحاكمة الغنية، فهي التي بدأت بإنشاء المكتبات الخاصة، ثم تعدى ذلك إلى القادرين من الشعب.

كان معاوية بن أبي سفيان من المغرمين بالاطلاع على سير الملوك قبله، من قبل التسلية وكسب الخبرة. قال المسعودي متحدثاً عن برنامجه اليومي كل ليلة: «ثم يدخل فينام ثلث الليل، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكائد، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات»[1].

وقد استقدم معاوية عبيد بن شرية الجرهمي ليسمع منه أخبار الملوك والأمم السابقة، وأمر نفراً من غلمانه أن يدونوا كلامه[2]. وقد دونت تلك الروايات في كتاب طبع في الهند سنة ١٣٤٧هـ ـــ ١٩٢٩م. وكان عنوان الكتاب المطبوع: «التيجان في ملوك حمير عن وهب بن منبه، وأخبار عبيد بن شرية الجرهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها». طبع بمطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد بتحقيق المستشرق الألماني كرنكو.

وهؤلاء الذين كانوا ينسخون لبني أمية أو يكتبون لهم، كان منهم على مايبدو نوابغ. فقد تحدث الخوري يوسف أبو صعب عن أنه كان يملك مخطوطاً في النحو ألفه محمد بن عبد الله بن حنبل أحد كتّاب يزيد بن

---

(١) مروج الذهب ٣١/٣.

(٢) الفهرست ١٠٢.

معاوية سنة ٨٦هـ، وقد باعه ضمن مخطوطات لمكتبة جامعة أكسفورد[١].

ومن الوارقين الآخرين في ذلك العصر نجد خالد بن أبي الهياج، الذي كان يكتب المصاحف والشعر والأخبار للوليد ابن عبد الملك[٢]. وشعيب بن حمزة كاتب هشام بن عبد الملك. وقد كتب شعيب هذا كتباً كثيرة من إملاء الفقيه المحدث ابن شهاب الزهري حفظت بمكتبة القصر[٣]. فلما مات هشام آلت تلك الكتب مع غيرها إلى الوليد بن يزيد الذي توفي بعد هشام، وأكثر الفسق والفجور في سيرته حتى ثار عليه ابن عمه يزيد ابن الوليد وقتله. قال معمر بن راشد تلميذ الزهري: «كنا نظن أنا قد أكثرنا عن الزهري، حتى قتل الوليد، فإذا الدفاتر قد حملت على الدواب من خزائنه، يقصد من علم الزهري[٤].

وفي آخر عهد الأمويين حيث ارتفع شأن الثقافة وزادت معارف الكتاب، نجد كتّاباً يترجمون كتب الفلسفة، مثل أبي العلاء سالم بن عبد الرحمن كاتب هشام بن الملك[٥] الذي ترجم كتاباً لأرسطو كما نجد أدباء بارعين مثل عبد الحميد بن يحيى الكاتب[٦].

ومما سبق نستطيع أخذ فكرة عن محتويات مكتبة القصر الأموي. فهناك فقه الزهري، وفلسفة أرسطو، وحكايات عبيد بن شرية، ونحو ابن

---

(١) مقابلة مع الخوري أبي صعب في مجلة «الجمهور الجديد» اللبنانية عدد ١٩٧٥/٢/٩م.

(٢) الفهرست ٩.

(٣) «تذكرة الحفاظ» للذهبي.

(٤) «الطبقات الكبرى» لابن سعد ٣٨٩/٢.

(٥) الفهرست ١٣١.

(٦) الفهرست ١٣١ وانظر «وصية عبد الحميد الكاتب إلى الكتاب والموظفين» لمعالي الأستاذ عبد العزيز الرفاعي وتاريخ الطبري.

حنبل، وأشعار وأخبار نسخها ابن أبي الهياج. وهناك أيضاً كتب طب، فقد روي أن عمر بن عبد العزيز وجد في مكتبة القصر حين تولى الخلافة كتاب الطبيب السرياني أهرن. وكان قد ترجمه الطبيب اليهودي المستعرب ماسرجويه. فاستخار الله في إخراجه إلى الناس ونشره بين القراء. فلما أتم أربعين يوماً يستخير الله فيها نشره بعدها بين الناس[1]. وهذه الحادثة تدلنا على أن من إصلاحات عمر بن عبد العزيز العظيمة نشر الكتب التي كان من قبله يحتفظ بها.

هذا ماكان من شأن المكتبات الخاصة عند بني أمية. أما عند العلماء فقد بدأت المكتبات عند أبناء الموسرين منهم، مثل خالد بن يزيد بن معاوية الذي سنتحدث في الفصول التالية عن انشغاله بالعلوم الطبيعية. وقد سعى إلى تعلم العلوم، وأحضر مدرسين ومترجمين، وكون لنفسه مكتبة. وكان يقول عن نفسه: «عنيت بجمع الكتب، فما أنا من العلماء ولا من الجهال»[2].

ومن أبناء الموسرين أيضاً: الفقيه العالم عروة بن الزبير بن العوام. قال هشام ابنه: «أحرق أبي يوم الحرة كتب فقه كانت له، فكان يقول بعد ذلك: لأن تكون عندي أحب إليّ من أن يكون لي مثل أهلي ومالي»[3]. ومن الموسرين الذين اقتنوا مكتبات بسيطة كان ابن شهاب الزهري، الذي كان إذا جلس في بيته وضع كتبه حوله فينشغل بها عن كل أمور الدنيا، فقالت له امرأته يوماً: «والله لهذه الكتب أشد عليّ من ثلاث ضرائر»[4].

---

(١) «طبقات الأطباء والحكماء» لابن جلجل ٦١.

(٢) «جامع بيان العلم» لابن عبد البر ١٣٢/١.

(٣) الطبقات الكبرى ــ لابن سعد ٥٢/٥.

(٤) وفيات الأعيان ــ لابن خلكان ٣١٧/٣.

ومن أولئك العلماء أيضاً: اللغوي الفقيه أبو عمرو بن العلاء. كان قد نسخ من كلام الأعراب في رقاع قد ملأت بيتاً له إلى قريب من السقف. ثم تنسك فأحرقها كلها، فلما عدل عن رهبنته إلى الانشغال باللغة لم يكن له إلا ماحفظه بقلبه. وكانت معظم أخباره عن عرب أدركوا الجاهلية[1].

وكان الحسن البصري الفقيه والزعيم الاجتماعي البارز في عصره يقول: «إن لنا كتباً نتعاهدها»، أي: يتفقدها. وكتبه تلك كانت في الحديث[2]! وكان مجاهد بن جبر المفسّر يصعد بتلميذه أبي يحيى الكناسي إلى غرفته فيخرج إليه كتبه فينسخ منها[2]. وكانت كتب عبد الله بن عباس شيخ المفسرين تُرك حمل بعير منها عند موسى بن عقبة المحدث المؤرخ، فكان على بن عبد الله بن العباس يستعير كتب والده من موسى ويردها[2].

فمما سبق نرى أن انتشار الثقافة بين العلماء أدّىٰ إلى اقتنائهم بعض المكتبات البسيطة. وأن معظم هؤلاء كان ينسخ كتبه بنفسه، فينسخ عن شيوخه في الدين وعلومه، وعن الاعراب في اللغة والأخبار. أي: إن حال العرب في ذلك الوقت كان حال أمه ناهضة تخطط خطواتها الأولى في سبيل التقدم، بل تحبو على أربع لما تزل. حتى انتشر الورق في الدولة الإسلامية فيما بعد على أيام العباسيين. ولذلك نرى أنه لم تظهر مكتبات عامة في ذلك العصر الذي نتحدث عنه. فإما مكتبات خاصة للموسرين والذين ينسخون بأنفسهم، وإلا فتعلم القراءة والكتابة يعقبه تعليم شفوي في الغالب.

---

(١) وفيات الأعيان ـــ لابن خلكان ٣/١٣٦.

(٢) تقييد العلم ـــ للخطيب البغدادي ـــ في مواضع متفرقة.

على أن أبا الفرج الأصفهاني يروي لنا أن عبد الحكم بن عمرو الجمحي اتخذ بيتاً بمكة وضع فيه شطرنجات ونردات وقرقات (من أنواع اللعب كالضومنة والزهر) **ودفاتر فيها من كل علم**. فمن جاء علق ثيابه على وتد ثم **جر دفتراً فقرأه** أو بعض مايلعب به فلعب به مع بعضهم[1]. أي أن بعض الكتب وضعت ضمن ناد خاص ضم ذلك الجمحي وأصدقاءه.

وقد وجد بعض الذين نسخوا المصاحف بأجرة في ذلك العصر، ذكرنا منهم خالد بن أبي الهياج، وكان منهم مالك ابن دينار[2] المحدث.

وخلاصة القول عن الثقافة العربية في ذلك العصر هي أن أمة انتشرت فيها الثقافة لدرجة أن عدة علوم نظرية استحدثت استحداثاً خلال مدة تقل عن مائة عام، وانتشرت الكتب لأقصى حد تسمح به أمكانيات الورق، لانستغرب منها الاهتمام بالعلوم الطبيعية، وهذا ماسيرد تفصيله في الفصول اللاحقة بالبراهين والأدلة الساطعة.

---

(١) الأغاني ــ ٤ /٢٥٥.

(٢) الفهرست ــ ٩.



الفصل الثاني

الثقافات الأجنبية



بعد أن رأينا كيف انتشر التعلم والبحث والتدوين عند المسلمين، نلقي الآن نظرة على ماكان عند غير المسلمين من علوم ومعارف. حيث كانت البلاد التي تحت حكم الأمويين ملأى بالمدارس التي تعلم الفلسفة واللاهوت والعلوم الطبيعية والطب والمنطق وكل مايتصل بالفلسفة. وكانت هذه المدارس هي المؤسسات العلمية التي أثرت على سير العلوم الطبيعية قبل العصر الأموي وخلاله. وقد وردت نصوص صريحة تدل على تأثير بعض هذه المدارس على الحركة العلمية عند المسلمين في ذلك العصر، كمدرسة الإسكندرية. ورغم أن بعض تلك المدارس لم ترد نصوص صريحة عن تأثيرها في العصر الأموي ولم نسمع عنها إلا في العصر العباسي، كمدرسة جنديسابور، إلا أن المظنون هو أن كل تلك المدارس كان لها تأثير في ذَلك العصر، وإن لم ترد نصوص صريحة بذلك. فنحن لانعرف من أين تخرّج جميع رجال ذلك العصر الذين أثروا في الحركة العلمية، وكانت لهم الأدوار الرئيسية فيها. ولذا ترانا نسرد تاريخ تلك المدارس جميعها في هذا الفصل.

مدرسة الإسكندرية

كانت مدرسة الإسكندرية بلا شك من أشهر المدارس التي عرفت في التاريخ، ولعل شهرتها ترجع إلى اهتمام الحكام بها لموقع المدينة الاستراتيجي. تأسست في عهد بطليموس قائد الإسكندرية المقدوني الذي خلفه على حكم مصر سنة ٣٢٣ قبل الميلاد. وكان بطليموس في سياساته كلها يهدف إلى سلب أضواء من اليونان مركز الحضارة في ذلك الزمان. فاعتنى بالمدرسة وأقام فيها عدداً من العلماء برزوا في الجغرافية

والفلك والعلوم الرياضية والطب والتاريخ والأدب والفلسفة. وكانت الدولة تمنحهم المرتبات الضخمة لتشجيعهم على البحث والتنقيب. فبرز منهم علماء مشهورون مثل ارتو ستينس Eratosthenes الجغرافي، وهو أول من قاس قطر الأرض، وأرستارخس Aristarchus الفلكي، وأول من اكتشف المجموعة الشمسية، واقليدس المهندس، الذي تعتبر تعاليمه هي الأساس في الهندسة حتى اليوم، وبطليموس الجغرافي الفلكي الذي ظل كتابه «المجسطي»، مرجعاً طوال عصر الحضارة الإسلامية، وأرشميدس الفيزيائي المشهور(١).

أما في عهد الرومان فقد خبا ضياء هذا الإشعاع، وخمدت جذوة هذه الهمم بسبب من الجمود الفكري وعدم التشجيع، فاتجهت اهتمامات هذه المدرسة إلى الفلسفة النظرية، ولكن بشكل مبدع. حيث تفوق أهل هذه الفلسفة، وازدهر اللاهوت المسيحي واليهودي، وظهرت الفلسفة الإسكندرانية أو الأفلاطونية الجديدة، أو الأفلوطينية نسبة إلى مؤسسها أفلوطين(٢).

على أن المدرسة التي أسسها بطليموس وهي المعروفة بالميوزيم Museum (المتحف بلغة اليوم) قد لحقها دمار كبير في القرن الثالث الميلادي. وشب فيها حريق أتى على مكتبتها، ثم سمعنا عن مدارس أخرى نهبت هي الأخرى في أوقات اضطرابات دينية، وجاءت مدارس غيرها... وهكذا إلى نهاية العصر الروماني(٣).

---

(١) مقالة «من الإسكندرية إلى بغداد» لميرهوف ــ ضمن كتاب «التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية»، عبد الرحمن بدوي وكتاب «أعلام الفلسفة العربية في العهد الوسيط» لعدة مؤلفين ص ٨٤.

(٢) أعلام الفلسفة العربية في العهد الوسيط ص ٨٤.

(٣) مقالة «من الإسكندرية إلى بغداد» ــ ميرهوف.

وقبيل العصر الإسلامي أصاب العلم الطبيعي في الإسكندرية بعض الانتعاش، حيث وجد تراث الإغريق الطبي من يرعاه مثل آيتيوس الأميدي الذي نبغ سنة ٥٥٠م، وبولس الأجنيطي الذي نبغ سنة ٦٢٥م وأدرك فتح العرب لمصر سنة ٦٤١م. وظهرت مباديء جديدة لتدريس الطب مستندة إلى آراء جالينس الرئيسية[١]. واشتهر في الفلسفة أناس آخرون أيضاً مثل يحيى النحوي، واصطفن الاسكندراني فيلسوف بلاط هرقل[١].

وسنرى فيما بعد كيف تأثرت العلوم في العصر الأموي بعلماء من هذه المدرسة مثل أهرن وأدفر. وفي عهد عمر بن عبد العزيز انتقلت المدرسة إلى انطاكية[٢]. وقد أورد المسعودي هذا الخبر بشكل مختصر دون أن يشرح سبب الانتقال، ولا إذا كان لعمر دور في ذلك أم لا.

وقد درس المستشرق ميرهوف هذا الخبر طويلاً في مقالة له بعنوان: «من الإسكندرية إلى بغداد» نشرت ضمن كتاب «التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية» وهو مجموعة مقالات أعدها وترجمها عبد الرحمن بدوي. وقد أعرب ميرهوف عن اعتقاده بأن سبب الانتقال من الإسكندرية إلى أنطاكية هو قرب هذه المدينة من الروم، وبالتالي قربها من المخطوطات. وأنا أتردد في قبول هذا السبب، لأن رهبان الإسكندرية ــ وهم أهل التعليم في مدرستها ــ لم يكونوا مبهورين بمخطوطات اليونان كما حصل للعرب في العصر العباسي، بل كانت عندهم هذه الكتب وشروحها وكتب غيرها. ولو كان السبب هو الاقتراب من الروم بسبب المخطوطات لانتقلت المدرسة من زمن بعيد جداً قبل الفتح الإسلامي.

---

(١) مقالة ميرهوف بكتاب «تراث الإسلام» إعداد آرنولد وترجمة جرجيس فتح الله.

(٢) التنبيه والإشراف للمسعودي ص ١٢٢ طبعة أوربا.

وإنما السبب في اعتقادي هو أن انطاكية مركز ديني لم يسكنه العرب، وظل نصرانياً بالكامل. فقد كان هرقل آخر امبراطور روحي قبل الفتح الإسلامي يسكن هذه المدينة. وحين فتحها العرب أبقوها دون أن يحاولوا السكن فيها، لأنها لم تكن ذات موقع استراتيجي على الجبهة، ولا ذات حساسية وأهمية كدمشق والإسكندرية. وقد كان الرهبان يبحثون عن مكان لايزعجهم فيه الولاة المسلمون، لأن التسامح المعروف عن الإسلام لم يطبق تماماً في عهد الأمويين. وسنتحدث عن أمثلة تدل على سوء معاملة الطبقة الحاكمة في ذلك العهد للأعاجم في الفصل التالي.

وقد كانت مدرسة الإسكندرية قد آثرت الاهتمام بالفلسفة النظرية المتصلة بالاهوت. وتأثرت بها مدرسة أنطاكية منذ تأسسها خلال العهد الروماني. فكان هذا هو المكان الملائم لنقل مدرسة الإسكندرية إليها، بينما كانت المدارس الأخرى لها اهتمامات مختلفة، أو ليست بمستوى هاتين المدرستين حجماً وشأناً.

وقد قال رسلر[1] بأن خالد بن يزيد أنشأ مدرسة بمصر، ولم يذكر المصدر الذي اعتمد عليه، ولم يقدم أي برهان على زعمه. وأنا أستبعد ذلك، لأن خالداً اهتم بالعلوم الطبيعية من قبيل الهواية. وظل أميراً منشغلاً بالتعامل مع الطبقة الحاكمة من العرب التي كانت تهتم بالسياسة والهوايات العربية البعيدة عن العلوم الطبيعية. وعلاوة على هذا فهو عاش بالشام طوال حياته حسب قول المصادر[2].

مدرسة جنديسابور

أما مدرسة جنديسابور فقد تأسست في القرن الثالث الميلادي حيث وقعت في ذلك القرن حروب بين الفرس والروم، حدث خلالها أن وقع

---

(١) الحضارة العربية ــ رسلر ص ١٧٤.

(٢) الأعلام ــ للزركلي ــ ترجمة خالد والمصادر التي أحال إليها.

بعض الروم أسرى في يد الفرس، وكان منهم المهندسون والأطباء والمعماريون. وقد أسكنهم كسرى سابور بن أردشير في ثلاثة معسكرات كان من ضمنها جنديسابور[1].

وكان للحرية التي منحوها في ممارسة شعائر دينهم أثر كبير على نهضة مدينة جنديسابور الفكرية، حيث كان الحجر الفكري في بلاد الروم يطبق على من لايدين بمذهب الدولة الرسمي. وفي ظل الحرية التي عاشها هؤلاء جعلوا من مدينتهم جزيرة فكرية يونانية بقلب المشرق.

وفي سنة ٥٢٩م أغلق الإمبراطور الرومي جو ستنيان مدارس أثينا الوثنية، وطرد العلماء الوثنيين منها، فلجأ بعضهم إلى فارس، حيث رحب بهم كسرى أنو شروان، وجعلهم في مدرسة جنديسابور[2]. وقام هذا الكسرى بتكليف المترجمين بترجمة كتب الروم وكتب الهنود إلى الفارسية[3]. وهو الذي أنشأ بيمارستان المدينة، حيث ظل ذلك البيمارستان (أي المستشفى) قلعة الطب الشامخة في عالم ذلك العصر قروناً طويلة.

كانت لغة العلم في جنديسابور السريانية، ولكن المدرسة الطبية ضمت علماء من أجناس مختلفة. فقد كان في المدرسة فرس وروم وهنود، فكانت تضم تراث الفرس والهنود واليونان يدرس بالسريانية[4]. وقد تتلمذ فيها الحارث بن كلدة طبيب العرب الذي أدرك العصر الجاهلي ثم بدايات العصر الأموي[5].

---

(١) معالم الحضارة الإسلامية لمصطفى الشكعة ١٣٨.
(٢) أثر العرب في الحضارة الأوربية ــ جلال مظهر ص ١٤٨.
(٣) تاريخ آداب اللغة ــ زيدان ٣/٢ ومقدمة «كليلة ودمنة» لابن المقفع.
(٤) أثر العرب في الحضارة الأوربية لمظهر ص ١٤٨.
(٥) عيون الأنباء ــ ابن أبي أصيبعة ــ ترجمة الحارث.

ونظراً لأن هذه المدرسة كانت أنشط وأغنى المدارس في ذلك العصر فقد اعتاد المؤرخون الذين يتحدثون عن أطباء العصر الأموي أن يجزموا على أنهم من خريجي هذه المدرسة دون الاستناد على دليل أو نص. والواقع أن النصوص التي وصلت إلينا تنص صراحة على أن أطباء العصر العباسي كانوا من هذه المدرسة، أما العصر الأموي فلا يوجد دليل قاطع أو نص يوضح أن علماء أو أطباء معنيين قد تخرجوا من تلك المدرسة، ماعدا حالة الحارث بن كلدة. ولو أننا لانستبعد كون واحد أو أكثر من علماء ذلك العصر قد تخرج من جنديسابور.

مدرسة حران

وفي حران كانت مدرسة أهلها وثنيون يعبدون الكواكب، وقد ورثوا ديانتهم من قدماء البابليين. وتطورت تلك الديانة مع امتزاج الفلسفة الإغريقية بها، فصارت ديانة قوية لأهل المدينة[١]، برغم تهكم جيرانهم بتلك الديانة، وإطلاقهم اسم «هلينوبوليس» أي مدينة اليونان عليها رغم وقوعها في العراق[٢].

وقد سبق أن ذكرنا أن مدرسة الإسكندرية انتقلت إلى أنطاكية خلال العصر الأموي. وقد قال المسعودي بأن هذه المدرسة انتقلت من أنطاكية خلال العصر الأموي. وقد قال المسعودي بأن هذه المدرسة انتقلت من أنطاكية إلى حران في عهد المتوكل العباسي[٣]. وشبيه بهذا الخبر مارواه ابن أبي أصيبعه عن الفارابي الذي تتلمذ على أحد المعلمين الذين تتلمذوا على معلم من أهل أنطاكية الذين هاجروا إلى مرو وحران. قال ابن أبي أصيبعه: «إلى أن كان الإسلام بعده بمدة طويلة، فانتقل

(١) الفكر العربي ومكانته في التاريخ ــ أوليري ص ٦١.

(٢) مقالة ميرهوف «من الإسكندرية إلى بغداد»

(٣) التنبيه والاشراف ١٢٢.

التعليم من الإسكندرية إلى أنطاكية، وبقي بها زمناً طويلاً، إلى أن بقي لها معلم واحد فتعلم منه رجلان. وخرجا ومعهما الكتب، فكان أحدهما من أهل حران، والآخرين من أهل مرو.

فأما الذي من أهل مرو فتعلم منه رجلان: أحدهما إبراهيم المروزي، والآخر يوحنا بن حيلان.

وتعلم من الحراني إسرائيل الأسقف وقويري، وسارا إلى بغداد. فتشاغل إسرائيل بالدين، وأخذ قويري في التعليم.

وأما يوحنا بن حيلان فإنه تشاغل أيضاً بدينه، وانحدر إبراهيم المروزي إلى بغداد فأقام بها. وتعلم من المروزي متى ابن يونان، وكان الذي يتعلم في ذلك الوقت إلى آخر «الأشكال الوجودية».

وقال أبو نصر الفارابي عن نفسه إنه تعلم من يوحنا بن حيلان إلى آخر كتاب البرهان»[١].

وكما أن جنديسابور أمدت الحضارة الإسلامية بالأطباء فإن حران أمدتها بالرياضيين والمهندسين والفلكيين. ولكن كما قلنا عن جنديسابور فإننا لانجد نصوصاً صريحة عن علماء في العصر الأموي من خريجي مدرسة حران، وإنما نجد هذه النصوص عن علماء العصر العباسي. والسبب في هذا كما هو واضح ندرة النصوص عن العصر الأموي في مجال العلوم الطبيعية.

---

(١) عيون الأنباء ٦٠٤.

مدرسة نصيبين ومدرسة الرهــا

وفي مدينة نصيبيين الواقعة بين حدود دولتي الروم والفرس[1] نشأت مدرسة دينية أنشأها الأسقف يعقوب كبير النصارى في ذلك الوقت (سنة ٣٢٠م). فكانت في مبدأ أمرها تدرس الفلسفة الاغريقية بين النصارى الذين يتكلمون بالسريانية. فكانت الكتب الاغريقية تترجم في تلك المدرسة.

وقد عين يعقوب لتلك المدرسة مديراً اسمه إبراهيم من شيوخ الكنيسة. وعمل إبراهيم بإخلاص في سبيل رفع مستوى المدرسة، واكتسب شهرة عظيمة. وظل فترة تقارب ستين عاماً يرأس هذه المدرسة، إلى أن كانت سنة ٣٦٣م حين سلم الروم هذه المدينة إلى الفرس بموجب معاهدة صلح. ففر النصارى اليعاقبة إلى الروم، لأن إبراهيم كان من أبطال الدفاع عن المدينة، فلجأ إلى الرها حيث أسس مدرسة يعقوبية سنة ٣٧٣م[2].

هذا عن النصارى اليعاقبة، أما النصارى النساطرة فقد كان ترتيب إنشائهم مدارس في الرها ونصيبين بالعكس. فقد نشأت عقيدتهم سنة ٤٢٨م حين نصب الراهب نسطور الأنطاكي تلميذ أنطاكية أسقفا على القسطنطينية، حيث كان مؤسس المذهب النسطوري الذي يقول بأن المسيح عليه السلام كان حين مولده إنساناً عادياً ثم نصب إلهاً بعد ذلك (والعياذ بالله من لغوهم الباطل) بدخول الكلمة في الجسم الإنساني. فكان رأيه هذا مخالفا لتعاليم كنيسة ذلك الزمان. فعقد مجمع كنسي في افسوس سنة ٤٣١م حيث اتهم النساطرة بالإلحاد، فأعلنوا العصيان على الكنيسة، مما أدى إلى وقوع اضطهاد عليهم.

---

(١) زيدان ــ ٢/٣١.

(٢) الشكعة ١٣٨ أوليري ٤٣ ومابعدها جلال مظهر ١٤٨.

وفي هذه الأثناء انتشر المذهب النسطوري بين معظم النصارى المتكلمين بالسريانية، ومن ضمنهم أهل الرها الذين أقفل الامبراطور الرومي مدرستهم سنة ٤٣٩م. فظل النساطرة مضطهدين حتى هاجروا برئاسة كبيرهم برسوما سنة ٤٥٧م إلى فارس، حيث اقنعوا كسرى الفرس بأنهم أعداء الدولة الرومية، فسمح لهم بإعادة فتح مدرسة نصيبين، ولكن على أساس تعليم المذهب النسطوري بدلاً عن مذهب الدولة الرومية الذي كان سائداً قبل وقوعها بيد الفرس[١] (وهو المذهب اليعقوبي كما أسلفنا).

ونظراً لاعتماد النساطرة واليعاقبة على الفلسفة اليونانية، فقد كانت مدرستا نصيبين والرها مركزي ترجمة من اليونانية إلى السريانية.

مدرسة أنطاكية

وقد أتينا على ذكر مدرسة أنطاكية عند حديثنا عن انتقال مدرسة الإسكندرية إليها وانتقالها بعد ذلك إلى حران ومرو، ورأينا أن أحد خريجيها أسس المذهب النسطوري. وقد أنشأ هذه المدرسة القس مالخيون عام ٢٧٠م على غرار مدرسة الإسكندرية، وكانت تهتم بالتوفيق بين الفلسفة الأفلوطينية التي نشأت في مدرسة الإسكندرية كما ذكرن والمذهب المسيحي.

وهذه المدرسة هي التي أمدت الفكر اللاهوتي المسيحي بكثير من التطورات. فقد كانت كتب هذه المدرسة تترجم إلى السريانية فتدرس في مدرسة نصيبين[٢]، ومن هذه المدرسة انطلقت الدعوة النسطورية حين تخرج منها نسطور وأسس دعوته التي أدت إلى انشقاق كبير بين

(١) المصادر السابقة.

(٢) مقالة «من الإسكندرية إلى بغداد» لميرهوف والمصادر السابقة.

صفوف المسيحيين. وأدت إلى تحويل مدرستي نصيبين والرها إلى نسطوريتين كما رأينا من قبل.

ولما جاء العصر الأموي وأراد القائمون على مدرسة الإسكندرية نقلها إلى مكان آخر اختاروا مدرسة أنطاكية موضعا للانتقال كما سبق ورأينا. ثم انتقلت هذه المدرسة في عهد العباسيين إلى حران ومرو كما سلف.

وكانت هناك مدارس أخرى في البلاد التي حكمها العرب، نذكر منها مدرسة بيروت التي اشتهرت بتدريس القانون[١]. ومدرسة قنسرين التي كانت تعلم فلسفة اليونان باللغة اليونانية، وتخرج منها جماعة من مشاهير السريان الذين اشتغلوا بالفلسفة والرياضيات[٢]. ومدرسة قيصرية التي أسسها الفيلسوف أوريجين تلميذ أفلوطين الإسكندري على غرار مدرسة الإسكندرية[٣]. ومدرسة سيليوقيا التي أنشأها ماراً بطريق النساطرة الزرادشتي الأصل على غرار مدرسة نصيبين[٤]. ومدارس كثيرة بالأديرة المنتشرة في الشام والعراق ومصر[٥].

الفلاسفة النصارى في ذلك العهد

كان الرهبان في تلك المدارس يقومون بالدراسة والبحث ويؤثرون على الحياة العقلية والثقافية في ذلك العصر، وسنرى أن كثيراً منهم قد ترك على المجتمع بعض الأثر. وفي الفصل التالي سنرى آثار الفلاسفة في حياة المسلمين بعد أن نتحدث هنا عن سير أولئك الفلاسفة.

---

(١) مقالة ميرهوف «من الإسكندرية إلى بغداد» وزيدان ٢٣٤/١.
(٢) زيدان ٢.
(٣) أوليري ٤٣.
(٤) أوليري ٦٠.
(٥) مقالة ميرهوف السابقة و «العصر الإسلامي» لشوقي ضيف ص ٢٠١ وزيدان.

فمن هؤلاء كان ساويرا سابخت أسقف قنسرين اليعقوبي المتوفي سنة ٦٦٧م، حيث كان ممثل الحركة الأدبية في الشام على عهد الأمويين، وقد جادل الموارنة في بعض مسائل الدين المسيحي بحضرة معاوية بن أبي سفيان (على حد زعم الرواية) سنة ٦٥٩م. وألف رسائل ومقالات عديدة في الحساب والفلك والاصطرلاب والفلسفة[١] وبعض كتبه لاتزال موجودة اليوم[٢].

ومن تلاميذ ساويرا سابخت هذا أثناسيوس البلذي الذي صار بطريقا يعقوبيا سنة ٦٨٤م، وترجم كتاب «إيساغوجي» لفرفوريوس[٣]. ويعقوب الرهاوي المتوفي سنة ٧٠٨م، وهو يعد أكبر رجال الحركة اليونانية المسيحية في اللغة الآرامية[٤]، وهي إحدى لغات السريانية[٥]. وقد صار أسقفا على الرها، ثم استقال واعتزل فترة، ثم اشتغل بالتدريس والتأليف، وترجم كثيراً من كتب الإلهيات اليونانية إلى السريانية[٦]. وبالرغم من أن ميرهوف ذكر أنه لم يبق من كتبه شيء إلا أن أوليري يذكر كتاباً له في المتحف البريطاني[٤] في الفلسفة. ويذكر له نلنو أبحاثا منشورة في الجغرافية[٧].

ومن تلاميذ أثنا سيوس البلذي كان جورجس أسقف العرب المسيحيين في حوران بسوريا، وقد اشتهر بشرحه وترجمته لمنطق أرسطو، وبقيت أجزاء من آثاره في المتحف البريطاني[٤].

(١) كرد علي ــ «خطط الشام» ١٩/٣.
(٢) أوليري ٦٥.
(٣) أوليري ٦٦.
(٤) أوليري ٦٦،٦٧ وميرهوف ٥٥.
(٥) تاريخ مختصر الدول ــ ابن العبري ــ ص ١١.
(٦) فجر الإسلام ــ أحمد أمين ١٣٢.
(٧) علم الفلك عند العرب ــ نلّنو ــ ٢٧٩، ٢٨٠.

ومن رجال ذلك العصر الفلاسفة كان يوحنا الدمشقي الذي لقب لفصاحته بدفاق الذهب أسوة بسميه الأسبق يوحنا الأنطاكي الذي كان يلقب بفم الذهب. وبرغم أن يوحنا الدمشقي كان سوريا آرامي اللسان، إلا أن كتبه كانت بالاغريقية. وكان جده منصور بن سرجون خازن المال في دمشق خلال الفتح العربي. وقد احتفظ بمنصبه هذا، ثم كان ابنه والد يوحنا صاحب نفس العمل، ثم تولى يوحنا نفسه العمل حتى ولي هشام بن عبد الملك سنة ٧٢٤م، حيث اعتزل إدارة الأموال وانصرف إلى الرهبنة حتى توفي سنة ٧٤٨م.[١].

ومن رجال ذلك العصر يحيى النحوي الإسكندري الذي كان تلميذا لساويرس أو ساويرا سابخت الذي سبق ذكره، وبالتالي كان يعقوبيا كأستاذه[٢]. وكان أسقفا على نقيوس بمصر في عهد البطريرك اليعقوبي سمعان المتوفي سنة ٦٨٦م أو ٧٠٠م. وكان مشهورا بالفلسفة والطب[٣]. وقد عزل من منصبه، وفي سبب عزله قولان. قال النديم: «ثم رجع عما يعتقده النصارى في التثليث، فاجتمعت الأساقفة وناظرته فغلبهم، واستعطفته وآنسته وسألته الرجوع عما هو عليه وترك إظهاره، فأقام على ماكان عليه وأبى أن يرجع، فأسقطوه» وجاء في مقالة عنه بمجلة «المقتطف»: «وذكر ساويرس ابن المقفع أيضاً أن البطريرك سمعان، وهو الثاني والأربعون من بطاركة الإسكندرية، عهد إلى الأنبا يوحنا أسقف نقيوس بتدبير أمر الديارات في مصر، وحدث بعد ذلك أن راهبا ارتكب جريمة، فضربه الأنبا ضربا مبرحا أفضى إلى موته. فاجتمع الأساقفة وقطعوه». وجاء في آخر مقالة «المقتطف» مايلي: «هذا ماوقفنا عليه من

---

(١) فجر الإسلام ص ١٣٤ وتاريخ العرب ــ فيليب حتي ٣١٤.

(٢) الفهرست ٣١٤.

(٣) عيون الأنباء ١٥١ ومقالة المقتطف عدد مايو ١٩١١.

أخبار يوحنا النحوي أسقف نقيوس لخصناه من رسالة كتب بها إلينا جرجس أفندي فيلوثوس عوض من أدباء الأقباط المدققين في التاريخ، ومن مقدمة زوتنبرج الذي نقل تاريخ يوحنا النحوي من الحبشية إلى الفرنسوية»[١].

وهناك روايات أخرى عن يحيى النحوي، تارة يذكر أنه حضر مجمع خلدونية الكنسي الذي عقد سنة ٤٥١م[٢]، وتارة يذكر أنه من الديلم وعاصر على بن أبي طالب رضي الله عنه المتوفي سنة ٦٦١م[٣]. ومرة يذكر أنه عاصر عمرو بن العاص في قصة مشكوك فيها جاء فيها ذكر حرق مكتبة الإسكندرية بأمر من عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد أتى عباس محمود العقاد على تلك القصة وذكر آراء المؤرخين من مستشرقين وعرب في تفنيدها بكتاب «عبقرية عمر».

---

(١) عدد مايو ١٩١١م.

(٢) عيون الأنباء ١٥٢.

(٣) تاريخ حكماء الإسلام ــ البيهقي ــ ٣٩.



الفصل الثالث

تمازج الثقافات المختلفة



رأينا فيما مضى كيف خرج العرب من جزيرتهم وعندهم مبادىء بسيطة من العلوم أضافوا إليها مااستجد لديهم من علوم نشأت بفعل تأثير الدين الإسلامي.

ثم رأينا كيف أن الأمم الأخرى من أهل البلاد التي فتحت كان لديهم ثقافة وعلوم كانت لاتزال نشطة نوعا ما عند الفتح الإسلامي وبعده. وكان لابدّ لها من أن تؤثر على الحياة الثقافية عند العرب حكام البلاد. فعملية تأثر العرب بالثقافات الأخرى واقتباسهم منها وتمازج ثقافتهم بها هو موضوعنا في هذا الفصل.

موقف الطبقة الحاكمة العربية من العجم

ومن الأمور المسلم بها أن تمازج العرب في ذلك العصر، وخاصة أهل السلطة منهم، بالأعاجم ظل محدودا بعض الشيء. وذلك لموقف الطبقة الحاكمة العربية من العجم. فهؤلاء الذين كانوا من ذوي النفوذ في البلاد كانوا ينظرون إلى الناس الأعاجم نظرة استعلاء. فقد وجدوا أنفسهم ملكوا أرضهم، وفات عليهم أن الذي جعلهم يمتلكون تلك الأرض كان روح الدين الإسلامي عند الصحابة الذين جاهدوا وصبروا حتى فتحوا البلدان، وكان أولئك الصحابة يعاملون العجم غير المسلمين معاملة المعاهدين بحيث يحسنون معاملتهم تبعا للمعاهدة التي بينهم. وكانوا يعاملون الذين يسلمون من العجم معاملة إخوان لهم لأن الأخوة الإسلامية أوثق من أية أخوة أخرى.

أما وقد انحرف مسار الدولة على عهد الأمويين من خلافة راشدة إلى

نظام مختلف فقد ظهرت تجاوزات كثيرة على الدين الإسلامي، وخاصة في معاملة العجم. فمن ذلك أن الجزية في التشريع الإسلامي هي ضريبة تفرض على أهل الملل الأخرى من رعايا الدولة الإسلامية. فإذا أسلم الذميّ سقطت عنه الجزية بإسلامه فلا تجب عليه سوى الزكاة التي تجب على كل مسلم، فلما رأى عمال بني أمية أن العجم يسلمون ويتخلصون بإسلامهم من الجزية صاروا لايعفونهم منها، فصار العجمي مسلما يؤدي جزية غير المسلم. إلى أن تولى الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز، فأمر بوضع الجزية عمن أسلم، ولقي مقابل هذا اعتراضا وامتعاضا من ولاته فهذا أحد الولاة يكتب له أن بعض العجم يسلمون قبل السنة المالية بيوم تخلصا من الجزية. فرد عليه عمر: «إن أسلم والجزية في كفة الميزان فلا تؤخذ منه»[1]. وكتب إليه وال آخر مقترحاً أن يمتحن المهتدين إلى الإسلام بالختان، فرد عليه عمر: «إن الله بعث محمداً ﷺ داعيا ولم يبعثه خاتنا»[2]. وصرح أحد الولاة بحرصه على أموال الجزية حين كتب إلى عمر قائلاً: «إن أهل الذمة قد أسرعوا في الإسلام وكسروا الجزية»، فكتب إليه عمر: «إن الله بعث محمداً ﷺ هادياً ولم يبعثه جابياً، فإذا أتاك كتابي هذا فإن كان أهل الذمة قد أسرعوا في الإسلام وكسروا الجزية فاطو كتابك وأقبل»[3]. أي أغلق دفتر سجلات الجزية الذي أرسلناك به وارجع.

ومن ذلك أن سعيد بن عثمان بن عفان كان طامعاً بالملك، فولاه معاوية خراسان ليتخلص منه، فذهب يقاتل حتى انتهى إلى بخارى، فعقد صلحاً مع الملكة أخذ بموجبه ثلاثين غلاماً من أولاد الملوك دون سن

---

(١) الطبقات الكبرى ــ ابن سعد ٥ /٣٥٦.

(٢) تاريخ الطبري ٥ /٣١٦.

(٣) ابن سعد ٥/٣٨٣.

البلوغ رهائن لكي يضمن عدم غدر أهل بخارى من ورائه، على أن يردهم إلى أهليهم عند انتهاء غزوته. فلما أتم غزوه وأمن جانب الملكة مضى قافلاً إلى المدينة بالغلمان، وجعلهم فلاحين بأرضه، فما كان من أولئك الغلمان إلا أن اجتمعوا عليه يوما فقتلوه كما غدر بهم[1].

وقد تجاوز استعلاء أهل النفوذ من العرب على العجم إلى أن صاروا يهزأون بأولاد الجواري الأعجميات، ولو كانوا من أبناء الأكابر. فمن ذلك أن العباس بن الوليد بن عبد الملك كان أزرق العينين أشقر، فلما ثار يزيد أخوه على ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبد الملك أراد العباس مناصرة الوليد، فسار إليه مع نفر من أتباعه، فوقع في كمين مؤيد ليزيد بقيادة منصور بن جمهور الذي طلب منه أن يسير معه فيبايع يزيداً فأبى، فقال له منصور: «ياقسطنطين (يعيره بلون عينيه وشعره)، لئن أبيت لأضربن الذي فيه عيناك»[2].

ومن ذلك أيضاً خطبة ليزيد بن المهلب حين ثار على الأمويين، وبلغهم أنهم سيروا إليه جيشا بقيادة مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد الذي سبق ذكره: «وأما مسلمة فجرادة صفراء، وأما العباس فنسطوس بن نسطوس. أتاكم في برابرة وصقالبة وجرامقة وجراجمة وأقباط وأنباط وأخلاط من الناس، إنما أقبل إليكم الفلاحون الأوباش كأشلاء اللجم»[3].

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري. والمغتالين لابن حبيب .

(٢) العيون والحدائق ١٤١.

(٣) البيان والتبيين للجاحظ ١/٢٣٧ طبعة السندوبي.

اختلاط العرب بالأمم الأخرى

والأمثلة أكثر من أن تحصيها هذه الصفحات، فهذه العقلية المتعصبة هي التي جعلت الاختلاط الثقافي محدودا بعض الشيء، ولكنه لم يكن متوقفا، فلا يمكن أن تقوم دولة بمنع الشعب من الاختلاط بعضه ببعض، بل إن الدولة نفسها لم تمتنع عن الاقتباس من الأعاجم في الشئون الادارية. فقد قال سليمان بن عبد الملك يشتكي من احتياجه للإداريين الأعاجم: «عجبت لهؤلاء الأعاجم، ملكوا ألف سنة، لم يحتاجوا إلينا ساعة واحدة في سياستهم. وملكنا مائة سنة لم نستغن عنهم ساعة»[1]. وذكرنا في الفصل الماضي أن أسرة يوحنا الدمشقي توارثت خزانة المال في دمشق. وكان الديوان بلغة الروم في دمشق وبلغة الفرس في العراق فعرّب على عهد عبد الملك بن مروان[2].

وقد اختلط العرب بالعجم في السكنى، فكان أكثر من نصف أهل الكوفة من الموالي الذين كانوا يحتكرون الحرف والصناعة والتجارة[3]. وكان السنود في البصرة هم أهل الحساب والصيرفة، فما وجد صيرفي في البصرة إلا وصاحب كيسه سندي[4].

ومما يدل على شيوع الفارسية بالبصرة في ذلك العهد ماروي أن يزيد ابن مفرغ حين هجا عبيد الله بن زياد بن أبيه في ولايته على تلك المدينة، فسقاه عبيد الله نبيذا وحمله على دابة في ثياب مهلهلة مقرونا إلى هرة وخنزير، وأمر أن يطاف به في الشوارع على هذه الصورة المزرية، فتجمع حوله الصغار يسألونه بالفارسية: «أين جيست»؟. أي «ماهذا» فكان يجيبهم على لسانهم:

(١) الموفقيات للزبير بن بكار ١٨٦.
(٢) فتوح البلدان ـــ البلاذري.
(٣) فجر الإسلام لأحمد أمين.
(٤) معالم الحضارة الإسلامية للشكعة ٢٩.

آب است نبيذ است عصارات زبـــيب است
سميه روسبي است[١]

فإذا علمنا أن الكوفة والبصرة مدينتان بنيتا كمعسكرين لجنود العرب على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، واتسعتا مع الزمن إلى أن صارتا مركزين هامين للثقافة العربية، أدركنا حال المدن الأخرى التي كانت في الأصل أعجمية واستوطنها العرب. فنتوقع أن يكون الاختلاط مع الأعاجم أكثر في مثل تلك المدن.

فكان العرب والعجم يعيشون جنبا إلى جنب، ويختلطون ببعضهم البعض. وكانت بعض المساجد تخصص حلقات لتعليم الأعاجم الدين الإسلامي. نستدل على ذلك من قصة موسى الأسواري أحد علماء الدين الإسلامي المتوفي حوالي سنة ١٥٠هـ[٢]، حيث كان يجلس في المسجد فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره، فيقرأ آية من القرآن ويفسرها للعرب بالعربية، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية[٣].

تعلم المسلمين آداب الأمم الأخرى

وكانت النتيجة الحتمية للاختلاط بين العرب والعجم أن بدأ العرب يرغبون في معرفة شيء من ثقافات الأمم الأخرى. وكانت الأديرة من أهم المراكز الثقافية التي قصدها العرب بقصد اللهو في البداية. ثم أخذوا يتعرفون على مافي تلك الأديرة من ثقافة فيما بعد.

فمعروف أن الأديرة تقام في أماكن خالية غالباً. فإذا صادف أن مر

(١) تاريخ الطبري، الأغاني، البيان والتبيين.

(٢) الأعلام للزركلي.

(٣) البيان والتبيين ١/٣٦٨ طبعة عبدالسلام هارون ١/٢٨٤ طبعة السندوبي.

بجانب أحد تلك الأديرة واحد من أغنياء العرب فإنه غالباً يلجأ إلى أهله يستريح عندهم مقابل أجر، ثم صاروا يقصدونها لأجل النزهة واللهو، حيث مادة «دير» في «معجم البلدان» لياقوت الحموي ترينا كيف أن كثيراً من أهل العصر الأموي أقاموا مددا في بعض الأديرة بقصد الاستراحة واللهو.

ولكن تطور الأمر فيما بعد إلى أن صار البعض يقصدون الأديرة للاطلاع والتعلم. حدث مالك بن دينار المحدث عن نفسه قائلاً: «كنت مولعاً بالكتب أنظر بها، فدخلت ديراً من الديارات ليالي الحجاج. فأخرجوا كتاباً من كتبهم، فنظرت فيه. فإذا فيه: «ياابن آدم، لم تطلب علم مالم تعلم، وأنت لاتعمل بما تعلم؟»»[١]. ومن أحد تلك الأديرة أفتى القس يعقوب الرهاوي (الذي ذكرناه في الفصل السابق) بأنه يحل لرجال الدين النصارى أن يعلموا أولاد المسلمين التعليم الراقي[٢]. مما يدل على أن بعض المسلمين رغب في تعلم «العلم الراقي».

ولهذا فإننا نرى خلال أحاديث كبار العرب في ذلك العصر عبارة تعلموها بدراستهم آداب الأمم الأخرى، وسنستعرض هنا بعض الخطب التي تدل على ذلك.

قال خالد بن عبد الله القسري حاكم العراق في عهد هشام بن عبد الملك في إحدى خطبه بعد أن ذكر الله عز وجل، يخاطبه: «كنت كذلك ماشئت أن تكون، لايعلم كيف أنت إلا أنت، ثم ارتأيت أن تخلق الخلق، فماذا جئت به من عجائب صنعك؟ والكبير والصغير من خلقك. والظاهر والباطن من ذرك، من صنوف أفواجه وأفراده وأزواجه.

---

(١) حلية الأولياء ــ ابن نعيم ٢ /٣٧٥.

(٢) فجر الإسلام ــ أحمد أمين ١٣٢.

كيف ادمجت قوائم الذرة والبعوضة، إلى ماهو أعظم من الأشباح التي امتزجت بالأرواح»[1].

وخطب نصر بن سيار الليثي حاكم خراسان في آخر العهد الأموي يقول: «ألا أن بهرامسيس كان مانح المجوس، يمنحهم ويدفع عنهم، ويحمل أثقالهم على المسلمين. ألا أن اشبداد بن جريجور كان مانح النصارى. ألا أن عقيبة اليهودي كان مانح اليهود يفعل ذلك. ألا إني مانح المسلمين أمنحهم وأدفع عنهم وأحمل أثقالهم على المشركين»[2].

ومن أقوال نصر بن سيار أيضاً: «كان عظماء الترك يقولون للقائد العظيم القيادة، لابد أن تكون فيه عشر خصال من أخلاق الحيوان: سخاء الديك، وتحنن الدجاجة، وقلب الأسد، وحملة الخنزير، وروغان الثعلب، وختل الذئب، وصبر الكلب على الجراحة، وحذر الغراب، وحراسة الكركي، وهداية الحمام»[3].

فخطبة خالد القسري التي تحمل في طياتها معرفة بالحكم الأجنبية وأحاديث نصر بن سيار التي تنطوي على معرفة بآداب الأمم الأخرى تدل دلالة واضحة على اختلاط العرب بالأعاجم ثقافياً وأخذهم عنهم .

الاتصال الثقافي بخارج الدولة الأموية

ولم يقتصر الاختلاط مع الأمم الأخرى على ماكان داخل البلاد الإسلامية، وإنما تعداه إلى الاتصال بالممالك الأخرى في ذلك العهد. فقد كان لابد للمسلمين من أن يتصلوا دبلوماسيا على الأقل بالدول الأخرى. فكانت السفارات مستمرة بين دمشق والقسطنطينية، فهناك مثلا بعثة الشعبي الذي أرسله عبد الملك بن مروان إلى ملك الروم[4].

---

(١) عيون الأخبار ــ ابن قتيبة ٢/٢٤٦.

(٢) تاريخ الطبري ٥ /٤٩٢.

(٣) الحيوان ــ الجاحظ ٢ /٣٥٣.

(٤) مروج الذهب ١١٣/٣ وكتب التاريخ الأخرى مثل الطبري.

وهناك سفارة بعث بها عمر بن عبد العزيز سيرد ذكرها في هذا الفصل.

على أنه لايجوز لنا أن نفترض أن الحرب كانت هادئة بين الدولتين وإنما كانت هذه السفارات لأجل ترتيب أمور هدنات وتبادل أسرى وما إلى ذلك. وهنا نضطر إلى أن نتوقف قليلا عن التحدث حول الاتصال الثقافي بين الدولتين لكي نناقش فكرة أبرزها المستشرق هاملتون جب Gibb عن الصلات بين بيزنطة والأمويين. فقد تحدث جب عن أن الطبري روى أن الوليد بن عبد الملك طلب من أمبراطور الروم مساعدته في بناء مسجد دمشق بإرسال فنيين يشاركون في أعمال البناء. واستغرب جب ذلك الخبر، وروى أن مؤرخين آخرين قد كذبوه ثم انبرى يحاول إثبات ذلك الخبر بطرق معقدة ملتوية[١].

والخبر نفسه غريب، حيث يقول الطبري رواية عن صالح بن كيسان المشرف على أعمال التعمير والهدم في عهد الوليد بن عبد الملك: «ابتدأنا بهدم مسجد رسول الله ﷺ في صفر من سنة ٨٨، وبعث الوليد إلى صاحب الروم يعلمه أنه أمر بهدم مسجد رسول الله ﷺ، وأن يعينه فيه. فبعث إليه من الفسيفساء بأربعين حملا، وأمر أن يتتبع الفسيفساء في المدائن التي خربت، فبعث بها إلى الوليد. فبعث بذلك إلى عمر بن عبد العزيز (واليه على المدينة المنورة)»[٢].

فلاحظ التناقض في هذا الخبر: يكتب الوليد بأنه أراد هدم المسجد فيبعث إليه الأمبراطور بالفسيفساء، وكأنه يريد بناء مسجد لا هدمه. ثم يقول الطبري بأن الوليد بعث بكل ذلك إلى عمر بن عبد العزيز والي المدينة، رغم أنه قال في البداية أن ذلك كله أرسل من أجل مسجد

(١) دراسات في تاريخ الإسلام ــ جب ٦٧.

(٢) تاريخ الطبري.

المدينة، فما هو الداعي لأن يقول الطبري أن الوليد أرسل كل شيء إلى المدينة مادام أن هذا شيء بديهي كما هو مفهوم من أول العبارة؟.

وأمام هذا الخبر احتار المستشرق جب، فتارة يقول بأن الذين كذبوا الخبر مخطئون، وتارة يستغرب كيف يطلب الوليد مساعدة فنية من البيزنطيين ويجيبه الامبراطور على ذلك رغم ما بين الدولتين من عداوة وحروب مستمرة. وانبري يتكلم طول المقال محاولاً إثبات الخبر، ولكن دون الوصول إلى نتيجة توضح الإجابة على استغرابه.

والجواب الحاسم في هذه المسألة يكمن في أن صيغة الخبر وردت في الطبري بشكل ناقص، ثم وردت عند مؤرخين غيره بشكل مبالغ فيه. إذ روى أولئك المؤرخون (كما روى جب) أن الوليد هدد امبراطور الروم إذا لم يرسل الصناع إليه، وأن الامبراطور أرسل الصناع خوفاً. وتارة يتحدث المؤرخون بأن الوليد طلب من امبراطور الروم أن يعينه على تعمير مسجد الرسول ﷺ، فأجابه الامبراطور. وينسى أولئك المؤرخون أن الامبراطور هو رئيس الدولة الدينية التي تناصب دولة الإسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام العداء.

والصيغة المعقولة للخبر وردت في «العيون والحدائق في أخبار الحقائق» لمؤلف مجهول من العصر العباسي، وهو متأخر قليلاً عن الطبري. حيث ورد الخبر هناك كما يلي: ((وقيل إن الوليد كتب إلى ملك الروم يعلمه أنه قد أمر بهدم مسجد رسول الله ﷺ، وأن يبني مسجد دمشق، وأن يعينه فيه. فبعث إليه بمائة ألف دينار ومائة ألف صانع وأربعين حملا من الفسيفساء. فحمل أكثر ذلك إلى مكة والمدينة))(١).

(١) ص ٥، وفي الخبر هذا مبالغة، فلا أتصور أنه وجد في بلاد الروم كلها مائة ألف صانع ماهر في البناء فضلاً عن أن يبعث الامبراطور بمثل ذلك العدد إلى عدوه.

إذن فالأمر كان خدعة من الوليد للروم. أوهمهم أنه سيهدم مسجد الرسول ﷺ، مقابل أن يبني بدلاً من ذلك مسجداً في دمشق يتباهي به. وقدر الأمبراطور أن ذلك لو تم فإنه سيكون مسماراً في نعش الدولة الإسلامية لأنه ينطوي على مخالفة لروح الدين الإسلامي الذي مكن المسلمين من فتح البلدان وحكمها. فسارع إلى إجابة الوليد إلى ماطلب، فأرسل مساعداتهم إلى مكة والمدينة.

فإذا أعدنا قراءة خبر الطبري بعد هذا وجدنا أنه فعلاً خبر ناقص إذ ما معنى أن ينشط الامبراطور جادا في إرسال الصناع والمال والفسيفساء إلى مسجد النبي ﷺ وهو الذي تسبب بنبوته في كسر شوكة الروم؟ وما معنى أن يرسل فسيفساء لمسجد يهدم ولا يبني؟ ولماذا يقول الطبري بعد ذلك: «فبعث الوليد بذلك إلى عمر بن عبد العزيز» طالما أن الوليد طلبها أصلا للمدينة المنورة؟.

إذن فالعلاقات بين دمشق والقسطنطينية كانت علاقات حروب مستمرة. بل ظل المسلمون يحاولون الاستيلاء على القسطنطينية عشرة قرون حتى تم لهم ذلك أخيراً على يد العثمانيين.

هذا على الصعيد الرسمي. أما على صعيد الأفكار فقد كانت هناك تيارات ثقافية متبادلة بين الجانبين توضحها القصة التالية عن الامبراطور ليون الثالث.

كان ليون سوريا يجيد العربية والرومية معاً[1]. وأعماله التي قام بها في حياته تدل على مدى التأثير الإسلامي على الحياة في بيزنطية ففي سنة ٧٢٦م أصدر مجموعة قانونية تعرف باسم «الإيكلوغا» تساعد القضاة

---

(١) العيون والحدائق ٢٥.

على حل المسائل الشخصية، وقد روعي في وضع نصوص الايكلوغا تسرب كثير من العادات الشرقية في الحياة إلى مجتمع الامبراطورية وهي العادات والمؤثرات التي حملها العرب المسلمون إلى بيزنطية خلال حملاتهم عليها واحتلالهم لأجزاء من أراضيها[١].

وفي نفس تلك السنة أعلن على منعه تقديس التماثيل والصور في الكنائس. متأثراً بالدين الإسلامي الذي يقوم في أساسه على محاربة تلك التماثيل والصور المقدسة، وظل في سياسته تلك حتى توفي سنة ٧٤١، وكان ابنه قسطنطين بعده مكملاً سياسته الدينية[١].

وقد كان ليون معجباً بعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، لأن هذا الامبراطور المثقف الحكيم أدرك أن من يحكم كحكم عمر هو الذي يستحق الإعجاب والتقدير دون غيره من الملوك الذين لم يكن يهمهم سوى أنفسهم فعندما مرض عمر أرسل إليه ليون رأس الأساقفة وأطبهم ليعالجه، ولكن عمر رفض علاجه كما قالت الرواية[٢].

وعندما توفي عمر كان رسل أرسلهم إلى ليون حاضرين في القسطنطينية. فدخلوا عليه أول فشاهدوا مجلسه الفخم، ((فلما كانوا في غداة غد أتاهم رسوله، فدخلوا عليه. فإذا هو قد نزل عن سريره، ووضع التاج على رأسه، وقد تغيرت صفاته التي شاهدوا عليها، كأنه في مصيبة. فقال: هل تدرون لماذا دعوتكم؟ قالوا: لا. قال: إن صاحب مسلحتي[٣] التي تلي العرب جاء في كتابه في هذا أن ملك العرب الصالح قد مات)). ثم أخذ ينعي عمر قائلاً: ((ولما اعجب لهذا الراهب

---

(١) مجلة «العربي» عدد ٤٦. مقالة عن ليون بقلم نبيه عاقل.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز — ابن عبد الحكم ١١٦.

(٣) المسلحة هي القاعدة العسكرية بلغة زماننا اليوم.

الذي قد ترك الدنيا وعبد ربه على رأس صومعته. ولكني عجبت من هذا الذي صارت الدنيا تحت قدمه، فزهد فيها حتى صار مثل الراهب. إن أهل الخير لايبقون مع أهل الشر إلا قليلا[١] .

هذا ما كان من ليون الذي تأثر بالأفكار الإسلامية، وأعجب بعمر ابن عبد العزيز. وقد لقي معارضة شديدة خلال عهده تمثلت في ثورة لاهبة اشتعلت ضده، واستطاع إخمادها بسرعة. ولكن أنصار تقديس الايقونة من أنصار الدولة الإسلامية كانوا يجهرون برأيهم فيها، لأنهم تحت حكم الأمويين آمن على أنفسهم مما لو كانوا تحت حكم الدولة البيزنطية التي تضطهد المخالفين فمن دير القديس سابا قرب القدس ارتفع صوت يوحنا الدمشقي الذي ذكرناه من قبل ليندد بآراء الامبراطور الدينية، وليكتب الرسائل المطولة في الدفاع عن الايقونات التي ماهي في نظره إلا رمز أو وسيط حسب مفهوم الفلسفة الافلاطونية الحديثة[٢].

ونستطيع تلمس مدى معارضة الغربيين لسياسة ليون حين نقرأ في أحد كتب الغربيين أنه بنى مسجداً بالقسطنطينية[٣]. وهو خبر مستبعد بالطبع، إذ أن المسجد يبني إذا كان هناك مسلمون يصلون فيه، فمن كان من المسلمين ساكنا القسطنطينية في ذلك الزمن؟ وأعتقد أن مخالفي ليون من أنصار الايقونات أطلقوا اسم «مسجد» على إحدى الكنائس التي جعلها خالية من تلك الايقونات كما هو الحال في مساجد الإسلام الخالية من الصور.

فنحن كما ترى بإزاء تفاعل ثقافي ذي شقين بين بيزنطية والدولة

---

(١) مروج الذهب ــ المسعودي ٣ /١٨٥.
(٢) مجلة «العربي» عدد ٤٦.
(٣) الامبراطورية البيزنطية ــ بينز ــ ص ٣٧٠ الترجمة العربية.

الأموية. ليون ينقل إلى شعبه بعض الأفكار الإسلامية، ويوحنا الدمشقي ينقل إلى نصارى الشام وغيرهم أفكار الفلسفة الهيلنية.

وهناك اتصال ثقافي تم مع الصين، فوثائق الصين تؤكد أن مبعوثين من العالم الإسلامي وصلوا إلى عاصمة الصين منذ عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه. فقد ورد في كتب التاريخ الصينية القديمة ما فحواه: ((في السنة الثانية من يوانخوي في عهد حكم الامبراطور تانغ كاو تسونغ قد زار بلاد الصين مبعوث من التاشي، وحمل معه الهدايا الثمينة للامبراطور. لقد أخبر المبعوث العربي امبراطور الصين. بأن دولته قد أسست منذ ٣٤ سنة فقط، وأن أمير المؤمنين الثالث يجلس على كرسي الحكم الآن))[١].

ثم تواردت البعثات العربية على الصين واحدة بعد أخرى، حتى ذكر تاريخ الصين ٢٨ بعثة بين ٦٥١ و ٨٠٠م، وفيها ١٦ بعثة منسوبة إلى «التاشي اللابسين ملابس بيضاء» و١٢ مسجلة باسم «التاشي اللابسين ملابس سوداء». فالمراد من الفئة الأولى الأمويون، ومن الفئة الثانية العباسيون.

أما المصادر العربية فتذكر أن ملك الصين كتب إلى معاوية ابن أبي سفيان يقول: ((من ملك الأملاك الذي تخدمه بنات ألف ملك، والذي بنيت داره بلبن الذهب، والذي في مربطه ألف فيل، والذي له نهران يسقيان العود والكافور الذي يوجد ريحه من عشرين ميلا. إلى ملك العرب الذي يتعبد الله ولا يشرك به شيئاً. أما بعد، فإني قد أرسلت إليك هدية. وليست بهدية، ولكنها تحفة. فابعث إليّ ما جاء به نبيكم من حلال وحرام. وابعث إليّ من يبينه والسلام)) قال راوى القصة: «وكانت الهدية كتابا من سرائر علومهم، فيقال إنه صار بعد ذلك إلى خالد بن

(١) تاريخ المسلمين في الصين — بدر الدين حي — ص ١٦ وكلمة تاشي يقصد بها العرب.

يزيد بن معاوية. وكان يعمل منه الأعمال العظيمة من الصنعة وغيرها»[1].

ومن المرجح أن رحلات فردية تمت بغرض التجارة بين الصين والعالم الإسلامي، لأن منتجات الصين كانت مما لايستغني عنه العالم في ذلك الوقت كالحرير والخزف الصيني. ومن أولئك الرحالةو رجل أدرك المنصور ثاني حكام العباسيين، فتعرض له ينصحه ويقول: ((وقد كنت ياأمير المؤمنين أسافر إلى أرض الصين. فقدمتها في بعض أسفاري، وقد أصيب ملكهم بسمعه. فبكي يوما بين يدي وزرائه، فقالوا له: ما أبكاك أيها الملك لابكت عيناك؟ فقال: أما إني لا أبكي للبلية التي نزلت الي، ولكني أبكي لمظلوم يصرخ ولا أسمع صوته. ثم قال: أما إن ذهب سمعي، فإن بصري لم يذهب. نادوا في الناس: ألا يلبس ثوباً أحمر إلا مظلوم. ثم كان يركب الفيل طرفي النهار، وينظر هل يرى مظلوماً))[2].

ويؤيد هذا الخبر ما رواه المسعودي من أن المتظلم في الصين إذا أتي من البلد الشاسع أو غيره تقمص نوعاً من الحرير الأحمر، ووقف في موضع قد رسم للظلامة[3].

العقائد الدخيلة على الإسلام

وكان التمازج الثقافي مع الشعوب الأخرى لابد أن يكون مصحوباً بالنقاش الديني، حيث اختلاف الدين بين المسلمين وغيرهم يجعل من الصعب أن نتصور أن المسلمين قد اتصلوا بأهل الملل الأخرى ليطلعوا على آدابهم وعلومهم دون أن يجر ذلك نقاشاً معهم حول الدين فنستنتج

---

(١) الذخائر والتحف ــ الرشيد بن زبير ــ ص ٩.

(٢) الموفقيات ــ الزبير بن بكار ــ ٣٩٦ وعيون الأخبار لابن قتيبة وشرح نهج البلاغة لابن أبي حديد والعقد الفريد لابن عبد ربه والمحاسن والمساوىء للتنوخي.

(٣) مروج الذهب ١/١٥٩.

من ذلك أن الحوار حول الأديان كان نشطاً في ذلك العهد واستنتاجنا هذا مدعوم بالأدلة والنصوص.

فمما ورد إلينا حول هذا الموضوع أن يوحنا الدمشقي الذي سبق ذكره ألف كتاباً بعنوان «محاورة مع مسلم»، وهو دفاع عن العقيدة النصرانية، كتبه لإرشاد النصارى في مجادلاتهم مع المسلمين، وصاغه بأسلوب: «إذا قال لك العربي كذا فأجبه بكـذا»[1].

ويبدو أن كتاب يوحنا لم يكن الوحيد في بابه. قال علي سامي النشار «ويثبت اتصال المسلمين بأصحاب هذه الأديرة وجود مخطوطات سريانية من مخطوطات هذا العهد فيها جانب كبير من نقاش المسلمين لعقائد المسيحيين، ورد هؤلاء الأخيرين على المسلمين»[2].

وظهر تأثير الثقافات الدخيلة على الفكر الإسلامي بظهور مذاهب إسلامية متأثرة بالديانات والعقائد الفلسفية الأجنبية مقتبسة منها تلك الأفكار الغريبة.

فمن تلك الأفكار فكرة تناسخ الأرواح التي كانت معروفة لدى الهنود، وعند بعض فلاسفة اليونان مثل فيثاغورس[3]. وقد اعتقد بعض العرب هذه الفكرة، ومنهم كثيّر عزة الشاعر الذي كان يحتج بالآية الكريمة: «**في أي صورة ماشاء ركبك**»، فيقول: «ألا ترى أنه حوله من صورة إلى صورة؟»[4]. فكان هذا مذهب بعض غلاة الشيعة[5].

(١) فجر الإسلام ــ لأحمد أمين ١٣٤ وتاريخ العرب لفيليب حتي ٣١٤.

(٢) مناهج البحث عند مفكري الإسلام للنشار ص ٣.

(٣) الشكعة ١٢٩.

(٤) الأغاني ١٦/٩.

(٥) الأغاني ١٦/٩.

وظهر مذهب القدرية بتأثير الديانة النصرانية، فكان أول من تكلم في القدر رجل من أهل العراق كان نصرانياً فأسلم، ثم تنصر! وأخذ عنه معبد الجهني وغيلان الدمشقي. وقتل معبد على يد الحجاج، وغيلان على يد هشام بن عبد الملك[١]. ونشأت في ذلك العصر فكرة الجبر والاختصار التي ترجع إلى أبان بن سمعان الذي تتلمذ على طالوت بن أعصم اليهودي[٢].

وظهر مذهب المعتزلة في أواخر العهد الأموي متأثراً بالمنطق اليوناني، حيث كان أولئك المعتزلة هم المدافعين عن الإسلام ضد خصومه الذين كانوا يتخذون المنطق اليوناني والفلسفة اليونانية سلاحاً لهم. فتسلح المعتزلة بنفس السلاح، وانبروا يدافعون عن الإسلام بالمنطق والأفكار الفلسفية[٣].

ولم يكن المعتزلة وحدهم الذين جادلوا الكفار بسلاح المنطق والفكر، فقد كان الإمام جعفر الصادق أيضاً يجادل أولئك الكفار من دهريين منكرين لوجود الخالق وغيرهم بالمنطق والبراهين[٤].

---

(١) فجر الإسلام ٢٨٥.

(٢) دراسة في حضارة الإسلام ــ كمال شلال ــ ١٤٦.

(٣) فجر الإسلام ٢٩٩.

(٤) الكيمياء في التفكير الإسلامي ــ للهاشمي في عدة مواضع وحيلة الأولياء لابن نعيم ــ ترجمة الصادق.

الفصل الرابع

الترجمة



رأينا في الفصول السابقة كيف نمت الثقافة العربية وتطورت بحيث اتسعت مدارك المسلمين وصاروا يدرسون علوما لم تكن معروفة قبل الإسلام وانتشر التعليم بينهم وتوفر الكتاب بعض الشيء لديهم، ثم رأينا كيف أن البلاد التي فتحوها كانت ملآى بمدارس أجنبية كانت تدرس علوماً لم يعهدوها، ورأينا كيف بدأ العرب يختلطون بغيرهم ثقافياً فصاروا يتعلمون بعض آدابهم وحكمهم، بل ورحلوا إلى الممالك الأخرى خارج بلاد الإسلام وناظروا أهل الملل الأخرى وصاروا يستخدمون نفس حججهم المنطقية واستدلالاتهم الفلسفية.

فكان طبيعياً أن تؤدي تلك البيئة العلمية إلى حركة ترجمة لكتب أولئك الأجانب. تلك الترجمة التي أفردنا لها هذا الفصل، كانت الوسيلة التي دخلت بها العلوم الطبيعية إلى الحياة الثقافية في العصر الأموي.

بداية الترجمة

وقد اختلف المؤرخون المعاصرون حول أول ترجمة تمت في ذلك العصر، فصار كل واحد منهم يدلي برأي مختلف، وذلك لأن الثقافة والعلوم في ذلك العصر لم تؤرخ كما يلزم. فنجد مثلاً المستشرق نلِّنو يرى أن أول كتاب ترجم إلى العربية تمت ترجمته سنة ١٢٥هـ، أي في أواخر العهد الأموي الذي كانت مدته من سنة ٤٠هـ إلى ١٣٢هـ[1]. وبعض المؤرخين ينقل مباشرة مارواه محمد بن إسحق النديم في كتابه «الفهرست» من أن أول ترجمة تمت على يد خالد بن يزيد بن معاوية

(١) علم الفلك ١٤٢.

حوالي سنة ٨٠هـ[١]. وفيليب حتّي يرى أن أول كتاب طبي علمي بلغة الإسلام كان ترجمه ماسرجويه قبيل عهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه حوالي سنة ٩٠هـ أو ما حولها[٢].

ونحن هنا سنناقش كل هذه الترجمات بالتفصيل، ولكننا في البداية يجب أن نذكر أن أول ترجمة في العهد الأموي تمت على عهد معاوية بن أبي سفيان الذي توفي سنة ٦٠هـ.

كان معاوية مغرماً بالاطلاع على سير الملوك وسياساتهم، وقد مر بنا في الفصل الأول أنه استقدم عبيد بن شرية الجرهمي أحد رواة اليمن، وأنه أمر أن تدون رواياته في كتاب طبع في عصرنا. ولم يقتصر اطلاع معاوية على المصادر العربية، وإنما ترجمت له كتب أخرى كما يدل كلام المسعودي الذي تحدث عن برنامجه الخاص كل ليلة قائلاً: «ثم يدخل فينام ثلث الليل. ثم يقوم فيقعد، فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد. فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها. فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات»[٣].

قال جرجي زيدان معلقا على خبر المسعودي: «والغالب في اعتقادنا أن تلك الكتب كانت باللغتين اليونانية واللاتينية. وفيها أخبار اليونان والرومان كالاسكندر ويوليوس قيصر وهنيبال، وأن الغلمان كانوا يفسرونها له بالعربية»[٤].

---

(١) الفهرست ٣٠٣.
(٢) تاريخ العرب ٣٢٤.
(٣) مروج الذهب للمسعودي ٣/٣١.
(٤) تاريخ آداب اللغة العربية.

أما أنا فاعتقد أن عملية قراءة الكتب باليونانية أو اللاتينية، ثم ترجمتها ترجمة فورية إلى العربية عملية مملة وشاقة في نفس الوقت. وإنما الغالب هو أن تلك الكتب قد ترجمت سلفاً إلى العربية، فتقرأ له.

خالد بن يزيد

ومن الكتب التي ترجمت في عهد معاوية كتاب أرسله إليه ملك الصين يحتوي على علوم الصناعات الصينية، وسبق الحديث عنه في الفصل السابق. حيث وصل هذا الكتاب إلى خالد بن يزيد بن معاوية «وكان يعمل منه الأعمال العظيمة من الصنعة وغيرها»[١]. والصنعة يرادبها الكيمياء، وهو العلم الذي زعموا أنه يمكن به تحويل المعادن إلى ذهب.

خالد بن يزيد هذا بدت شخصيته غريبة للذين لم يدققوا في دراسة ذلك العصر. فقد وجدوا أن المؤرخين القدامى يحدثونهم عن أمير عربي يهتم فجأة بالكيمياء والعلوم الطبيعية دون أن يتطرق أولئك الرواة إلى عوامل مهدت لهذا الاهتمام المفاجيء. ولهذا فإننا نجد بعض المؤرخين مثل ابن خلدون في «المقدمة» والمستشرق ألدوميلي في كتابه «العلم عند العرب وأثره في تقدم العلم العالمي» ينكرون وجود شخصية كهذه تبرز من العدم فتهتم بأعقد العلوم، والناس من حولها بدو غير مثقفين. ولهذا مهدنا لقاريء هذا الكتاب بالفصول الثلاثة الأولى لكي نوضح أن خالداً لم يبرز هكذا دون مقدمات، وإنما كان بروزه نتيجة حتمية لمقدمات سبقت ظهوره. ثم إن الحقيقة التاريخية تتأكد ويصبح من المستحيل إنكارها إذا جاء ذكرها بأساليب مختلفة في مصادر متعددة[٢]. وهذا هو واقع الحال بالنسبة لخالد بن يزيد، حيث سنجد خلال هذا الكتاب

---

(١) الذخائر والتحف ٩.

(٢) منهج البحث التاريخي ــ حسن عثمان.

مراجع ومصادر كثيرة تذكره، وكل مصدر يذكره بطريقة مختلفة عن الآخر.

قال محمد بن إسحق النديم: «كان خالد بن يزيد بن معاوية يسمى حكيم آل مروان[1]. وكان فاضلاً في نفسه، وله همة ومحبة للعلوم. خطر بباله الصنعة، فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر وقد تفصح بالعربية. وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي»[2]. ثم ذكر في موضع آخر أن الذي ترجم لخالد كتب الصنعة وغيرها هو اصطفن الذي نعته بالقديم تمييزاً له عن اصطفن بن باسيل الذي عاش في عهد العباسيين[3].

وقال النديم: «وهو أول من ترجم له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء»[3]. وقال الجاحظ: «وكان أول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء»[4].

فنستنتج من هذا أن كتباً كثيرة ترجمت لخالد. وهناك كتب في الفلسفة أيضاً ترجمت له، ففي خلال حديث للجاحظ عن أن الكتب المترجمة من لغة إلى أخرى لاتكون بنفس بلاغة الكتاب الأصلي ورد قوله: «فمتى كان رحمه الله ابن البطريق وابن ناعمة وأبو قرة وابن فهر وابن هيلي وابن المقفع مثل أرسطاطاليس ، ومتى كان خالد مثل أفلاطون»[5]. حيث كان الجاحظ يظن أن خالداً هو الذي ترجم لأفلاطون.

---

(١) رغم أنه ليس من آل مروان. انظر نسب الأمويين في جدول الخلفاء بأول الكتاب.

(٢) الفهرست ٣٠٣ (طبعة تجدد الإيرانية).

(٣) الفهرست ٣٠٤ (طبعة تجدد).

(٤) الفهرست ٤١٩ والبيان والتبيين للجاحظ ١/٢٦٠ طبعة السندوبي.

(٥) الحيوان ١/٧٦.

وقال على سامي النشار: «ومن الدلائل على علم المسلمين بالمنطق اليوناني في عهد بني أمية مايذكر من أن خالد بن يزيد (٩٠هـ) أمر بعض العلماء اليونانيين الذين كانوا يقيمون في الاسكندرية بترجمة الأورجانون من اليونانية إلى العربية»[1]. وقد اعتمد في كلامه هذا على رواية المستشرق لكلير Leclerc في كتابه «تاريخ الطب العربي» ج١ ص٦٨. والغالب أن لكلير اعتمد على مخطوطات بأوربا أو على بحث لمستشرق آخر، حيث كتابه المؤلف بالفرنسية لم يحظ بترجمة إلى العربية إلى اليوم.

والأورجانون هو مجموعة كتب أرسطو في المنطق.

مالك بن دينار

وقد رأينا في الفصل السابق كيف أن مالك بن دينار كان يدخل إلى الأديرة فيقرأ فيها الكتب على عهد الحجاج بن يوسف. وأغلب الظن أن تلك الكتب كانت قد ترجمت إلى العربية، لأن الجدال بين المسلمين والنصارى كان باعثاً للرهبان للتأليف عن الاسلام وترجمة الكتب المسيحية إلى العربية. وقد كان الحوار بين المسلمين والنصارى حول العقيدة نشطا في ذلك العصر كما مر بنا في الفصل السابق، حيث تعلم المعتزلة وبعض العلماء من غيرهم كجعفر الصادق أساليب الدفاع عن عقيدة التوحيد بالمنطق والحجج والبراهين. وفي المقابل ألف يوحنا الدمشقي كتاباً يرشد فيه قومه النصارى طرق الدفاع عن النصرانية، وأفتى يعقوب الرهاوي الرهبان بأنه يحل لهم تعليم أولاد المسلمين «العلم الراقي» ويقصد به الفلسفة.

---

(١) مناهج البحث ٤.

وقد ترجمت سورة الفاتحة إلى السريانية في القرن الأول الهجري[١]. وإلى الفارسية في عهد النبي ﷺ[٢]. وكان سبب الترجمة احتياج المسلمين من غير العرب إلى قراءة الفاتحة بلغتهم في الصلاة حتى يتعلموا العربية. ولابد أن ترجمة آيات من القرآن الكريم قد أدت إلى تسهيل الحوار مع أهل الملل الأخرى.

وكانت ترد على لسان مالك بن دينار عبارات كثيرة قرأها في كتب أجنبية. من ذلك أنه دخل على بلال بن أبي بردة والي البصرة فقال: «أيها الأمير، إني قرأت في بعض الكتب: «من أحمق من السلطان، ومن أغرّ ممن اغتر بي. أيا راعي السوء دفعت إليك غنما سمانا سحاحا، فأكلت اللحم وشربت اللبن وائتدمت بالسمن ولبست الصوف، وتركتها عظاما تتقعقع»[٣] ومن ذلك أيضاً عبارات في الزهد رواها له أبو نعيم في كتابه «حلية الأولياء».

ماسرجيس وكتاب أهرن

ثم ترجم ماسرجيس كتاباً لأهرن الطبيب. وهو كناش (أي مجموعة مقالات مختلفة) في الطب، وكان عدد مقالاته ثلاثين زاد عليها ماسرجيس مقالتين[٤].

كان أهرن من الأطباء الذين عاشوا في الإسكندرية في عهد هرقل (٦١٠ ــ ٦٤١م) وفي صدر الإسلام. ووضع كتابه باليونانية، ثم نقله إلى السريانية كما قال فؤاد سيد محقق كتاب «طبقات الأطباء والحكماء» لابن جلجل اعتمادا على مصدر لم يذكره[٥]. أما فيليب حتّى فيقول في

(١) مقالة لمحمد حميد في «المجلة العربية» العدد ٤ السنة الأولى.
(٢) النهاية حاشية الهداية ــ لتاج الشريعة ١/٨٦.
(٣) عيون الأخبار لابن قتيبة ١ /٥٤.
(٤) الفهرست ٣٥٥.
(٥) مقدمة كتاب ابن جلجل.

كتابه «تاريخ العرب» بأن الكتاب ألف باليونانية، وترجمه ماسرجيس من السريانية إلى العربية، ويستشهد بابن العبري في كتابه «تاريخ مختصر الدول» على ذلك. ولكن ابن العبري لم يذكر سوى أن ماسرجيس ترجم الكتاب من السريانية إلى العربية. ولم يذكر أن أهرن ألفه باليونانية.

فيبدو أن هذين الباحثين يعتبران أن الكتاب ألف باليونانية لأن لغة التأليف في الإسكندرية كانت اليونانية. ثم ترجم الكتاب إلى السريانية إما عن طريق المؤلف نفسه كما قال فؤاد سيد، أو عن طريق المترجمين السريان الذين كانوا يترجمون في أديرتهم ومدارسهم جميع العلوم والمعارف في ذلك العصر.

أما محمد بن إسحق النديم فيقول بأن الكتاب ألفه بالسريانية[1]. ولانملك إزاء هذه الأقوال سوى أن نعرضها جميعا بترك الفصل فيها على مايتولد من أبحاث أوسع.

وذكر ابن العبري المتوفي سنة ١٢٨٦م أن الكتاب باللغة السريانية موجود عنده، وأنه في ثلاثين مقالة أضيفت إليه مقالتان[1]. وقد ذكرنا في الأسطر الفائتة أن المقالتين أضافهما ماسرجيس مترجم الكتاب إلى العربية، فلعل ابن العبري قصد أن المقالتين أضيفتا إلى الترجمة العربية اعتمادا على ماذكره النديم دون أن يعني أن تلك المقالتين عنده في النسخة السريانية. أو أن نسخته السريانية تحتوي على إضافة ماسرجيس.

وظلت ترجمة الكتاب محفوظة في خزانة كتب القصر لدى بني أمية حتى تولى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فنشره بين الناس. قال ابن جلجل: «ماسرجويه: كان يهودي المذهب سريانيا، وهو الذي تولى في

---

(١) تاريخ مختصر الدول.

الدولة المروانية تفسير كتاب أهرن بن أعين القس إلى العربية. ووجده عمر ابن عبد العزيز في خزائن الكتاب، فأمر بإخراجه، ووضعه في مصلاه، فاستخار الله في إخراجه إلى المسلمين للانتفاع به، فلما تم له في ذلك أربعون صباحاً أخرجه إلى الناس وبثه في أيديهم»[1].

ثم قال ابن جلجل بأن الذي حدثه بذلك الحديث هو ابن القوطية العالم النحوي المؤرخ الأندلسي الذي كان جده عيسى بن مزاحم مولى لعمر بن عبد العزيز. وفي أيام هشام بن عبد الملك وفدت أميرة قوطية إلى الشام في قضية لها ضد أقربائها، فتزوجها عيسى ابن مزاحم، وسافر معها إلى الأندلس. وهناك ولد أبناؤه وأحفاده الذين تحدر منهم ابن القوطية الذي نسب إلى جدته المذكورة[2].

إذن فقصة كتاب أهرن المترجم ونشره من قبل عمر بن عبد العزيز رواها عيسى بن مزاحم لأحفاده الذين رووها لأبنائهم، حتى وصلت إلى حفيده ابن القوطية الذي حدث بها ابن جلجل. حيث سجلها هذا الأخير في كتابه الذي ألفه بالأندلس في نفس السنة التي ألف فيها محمد ابن إسحق النديم كتابه «الفهرست» في بغداد (سنة ٣٧٧هـ). وقد روى النديم كما ذكرنا أن ماسرجيس ترجم الكتاب وأضاف إليه مقالتين.

وعن النديم وابن جلجل نقل بقية مؤرخي الطب والعلوم القصة، ومنهم القفطي وابن أبي أصيبعة وصاعد الأندلسي. وقد دخلت إلى القصة تحريفات مع مرور الزمن. فعبارة: «تولى في الدولة المروانية تفسير كتاب أهرن» تحرفت إلى «تولى في أيام مروان في الدولة المروانية تفسير

---

(١) طبقات الأطباء والحكماء ٦٣.

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ٤/٥.

كتاب أهرن» كما قال القفطي[1]. ثم صارت «تولى في أيام مروان تفسير كتاب أهرن» كما قال ابن العبري[2].

وللأسف فإن الباحثين المعاصرين الذين لم يدققوا في دراسة ذلك العصر نقلوا عبارة «في أيام مروان» واعتمدوا عليها. حتى أن محقق كتاب ابن جلجل نفسه يعتمد تلك الرواية التي حرفت عن كلام ابن جلجل!!!.

فالكتاب إذن ترجم في عهد الدولة المروانية، أو الدولة الأموية التي بدأت بمعاوية بن أبي سفيان، ثم انتقلت بعد وفاته بأربع سنوات إلى مروان ابن الحكم وأولاده، فاستعمل الناس عبارة «الدولة المروانية». أما أن يكون الكتاب قد ترجم في عهد مروان بن الحكم أم لا فهذا مالم يقله ابن جلجل، وهو مصدر الروايات التالية فلا يصح أن يؤخذ بكلام غيره.

وحدث تحريف آخر في قصة ماسرجيس أو ماسرجويه. حيث يبدو أن هناك أكثر من شخصية تدعى ماسرجويه. فابن أبي أصيبعة (وهو مؤرخ متأخر عاش في القرن السابع للهجرة الثالث عشر للميلاد) ينقل في كتابه «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» ترجمة أهرن القس قائلاً: «أهرن القس: صاحب الكناش، وألف كناشه بالسريانية، ونقله ماسرجيس إلى العربي»[3]. وهذه الترجمة منقولة عن «الفهرست» للنديم. حيث نفس العبارات تكررت في الكتابين.

ثم يقول في موضع آخر: «ماسرجيس: كان ناقلاً من السرياني إلى

(١) أخبار العلماء بأخبار الحكماء.
(٢) تاريخ مختصر الدول.
(٣) ص ١٥٨.

العربي، ومشهوراً بالطب، وله من الكتب: كتاب قوى الأطعمة ومنافعها ومضارها، وكتاب قوى العقاقير ومنافعها ومضارها وهذه العبارة أيضاً منقولة كما هي من «الفهرست».

ثم يقول في موضع ثالث: «ماسرجويه متطبب البصرة، وهو الذي نقل كتاب أهرن من السرياني إلى العربي. وكان يهودي المذهب سريانيا، وهو الذي يعنيه أبو بكر محمد بن زكريا الرازي في كتابه (الحاوي) بقوله: قال اليهودي»[1].

ثم ينقل قصة نشر الكتاب المترجم من قبل عمر بن عبد العزيز كما رواها ابن جلجل الذي نقلنا كلامه قبل أسطر.

ثم يذكر قصة لأبي نواس الشاعر (١٤٥ ــ ١٩٥هـ) حدثت له مع ماسرجويه. ثم يقول: «ولماسرجويه من الكتب كناش، كتاب في الغذاء، كتاب في العين»[2].

فنلاحظ مما سبق أن ابن أبي أصيبعة يناقض نفسه حين يقول مرة بأن الذي ترجم كتاب أهرن هو ماسرجيس، ومرة أخرى يقول بأنه ماسرجويه!! وهو يعتبر الشخصين مختلفين، لأنه أفرد لماسرجيس ترجمة مستقلة نقل فيها اسم كتابين له عن «الفهرست». وسرد ترجمة أخرى لماسرجويه نسب إليه فيها ثلاثة كتب مختلفة عما نسب لماسرجيس.

ونلاحظ أيضاً أن هناك خلطاً في الفترة الزمنية التي عاش فيها ماسرجويه. فهل نصدق أنه ترجم كتاب أهرن قبل تولي عمر بن عبد العزيز الخلافة سنة ٩٩هـ، ثم كان معاصراً لأبي نواس (حوالي سنة ١٨٠هـ).

---

(١) ص ٢٨٠.

(٢) ص ٢٣٢.

فنستنتج من هذا أننا بإزاء أكثر من شخصية: ماسرجيس الذي عاصر الدولة الأموية، وماسرجويه الذي عاصر الدولة العباسية. والمرجح عندي هو أن النديم الذي كان وراقاً أدق في تسمية ماسرجيس لأنه رأى كتابه على الأرجح. وكان هو صاحب الرواية التي تفيد بأنه أضاف مقالتين إلى الكتاب الأصلي. أما ماسرجويه فقد عاش في العصر العباسي، وكان مشهوراً في زمانه، أستاذ للرازي. وبُعد ابن جلجل وابن القوطية عن مكان القصة هو الذي جعلهما يحرفان اسم ماسرجيس إلى ماسرجويه، لأنهما أو أحدهما سمع عن ماسرجويه الذي عاش في القرن الثاني فظن أنه هو ماسرجيس.

وقد ورد اسم ماسرجيس في شعر للشاعر محمد بن مناذر[1] الذي توفي سنة ١٩٨هـ وكان معاصراً لأبي نواس ولماسرجويه، بصريا مثلهما.

الكتاب المترجم لهشام

وفي عهد هشام بن عبد الملك ترجم أكثر من كتاب.

قال المسعودي: «ورأيت بمدينة أصطخر من أرض فارس في سنة ٣٠٣هـ عند بعض أهل البيوتات المشرفة من الفرس كتاباً عظيماً يشتمل على علوم كثيرة من علومهم وأخبار ملوكهم وأبنيتهم وسياستهم، لم أجدها في شيء من كتب الفرس كخداي نامه وآئين نامه وكهنامه وغيرها. مصور فيه ملوك فارس من آل ساسان سبعة وعشرون ملكاً منهم خمسة وعشرون رجلاً وامرأتان. قد صور الواحد منهم يوم مات شيخا كان أو شابا، وجليته وتاجه ومخط[2] لحيته وصورة وجهه، وأنهم ملكوا الأرض أربع مائة سنة وثلاثا وثلاثين سنة وشهرا وسبعة أيام، وأنهم كانوا إذا مات ملك من ملوكهم صوروه على هيئته ورفعوه إلى الخزائن كي لايخفي على

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ١٧١/٢ طبعة السندوبي.

(٢) أي أماكن نبت شعر لحيته.

الحيّ منهم صفة الميت، وصورة كل ملك كان في حرب قائما، وكل من كان في أمر جالساً، وسيرة كل واحد منهم في خواصه وعوامه، وماحدث في ملكه من الكوائن العظيمة والأحداث الجليلة.

وكان تاريخ هذا الكتاب أنه كتب مما وجد في خزائن ملوك فارس للنصف من جمادي الآخرة سنة ١١٣، ونقل لهشام بن عبد الملك من الفارسية إلى العربية»[١].

فهذا كتاب بالفارسية نقل لهشام بن عبد الملك عن سياسات الفرس وعلومهم.

الغطريف الغساني

ومما ترجم لهشام أو أسلافه كتب في البيزرة، أي معالجة الطيور وتربيتها. فقد كان الغطريف بن قدامة الغساني صاحب ضواري هشام مطلعا على كثير من الكتب في طب الطيور وتربيتها. قال الحجاج بن خيثم عن كتاب «طب الطيور» المخطوط في مكتبة طوب قبو سراي باستنبول: «استخرجنا هذا الكتاب من خزانة الرشيد، وعرضناه على الغطريف بن قدامة الغساني صاحب ضواري هشام بن عبد الملك والوليد فعرفه. وذكر أن معاذ بن أسلم زادهم فيه كلمات لملوك الأكاسرة. وذكر أن مخائيل بن ليون عظيم الروم لما سمع بولع المهدي بالصيد ولذته أهدى إليه كتاباً كان لأوائلهم في ضواري الطير. فأمر المهدي بإحضار أدهم بن محروز الباهلي. وكان قد سمع منه فيها نوادر العرب، فأمر بأن نصنف (في الأصل: نوهب) كتاباً جامعا لمقالات الحكماء والترك والفلاسفة والروم مع مجربات العرب (في الأصل: جربت بعرب) فألفنا هذا الكتاب»[٢].

---

(١) التنبيه والاشراف ١٠٦.

(٢) فهرس المخطوطات المصورة لمعهد المخطوطات العربية، ج٣ القسم الثاني الطب ص ١٢٦، وفهرس مخطوطات طوب قبو سراي.

إذن فالكتاب من تأليف الغطريف وأدهم. أمر بتأليفه المهدي العباسي، وذلك بالاستعانة بكتاب لملك الروم وخبرة أدهم بن محروز ومعلومات الغطريف الخاصة عن كتب ألفها الترك وغيرهم. ولم يكن دور الحجاج بن خيثم سوى أنه كان راويا للكتاب.

وقد أطلع الغطريف على كتب أصلها من بلاد التركستان، فقد جاء في كتاب «القانون في علم البيزرة» أن الغطريف قال: «وجدنا في كتاب خاقان ملك الترك كذا...»[1]

فهناك إذن كتب في طب الطيور ترجمت في عهد الأمويين منها الكتاب المنسوب إلى خاقان ملك الترك. ولعله كتاب أرسله ذلك الملك إلى الأمويين كهدية فنسب إليه مثل الكتاب الذي أرسله ملك الصين إلى معاوية.

سالم الكاتب

وإذا كان صاحب ضواري هشام بن عبد الملك مطلعا على كتب البيزرة المترجمة فإن كاتبه أبا العلاء سالم بن عبد الرحمن كان مترجماً أو مراجعاً للترجمات. قال النديم: «وكان ختن عبدالحميد. وكان أحد الفصحاء البلغاء. وقد نقل من رسائل أرسطا طاليس إلى الاسكندر. ونقل له وأصلح هو. له رسائل، مجموع نحو مائة ورقة»[2]، وجاء في طبعة رضا تجدد من «الفهرست»: «أو نقل له وأصلح هو»[2].

وقد كان سالم صاحب ديوان الرسائل في عهد هشام. ويروي له المؤرخون مثل الطبري وصاحب «العيون والحدائق» أخباراً كثيرة تدل على أنه كان ذا نفوذ قوي في البلاط. وقد نبه سالم وعلا ذكره حين صار كاتبا لبراعته في التعبير الكتابي. وكان قبل ذلك خاملاً[3].

---

(١) الصيد عند العرب للباشا ص ٣٦.

(٢) الفهرست ص ١٧٧ من طبعة مصر وص ١٣١ من طبعة تجدد الايرانية.

(٣) إعتاب الكتاب ص ٦٢ والعقد الفريد في عدة مواضع.

وقد لاحظنا أن النديم قال بأن سالماً كان ختن عبد الحميد، وهو يقصد عبد الحميد بن يحيى الكاتب المشهور الذي قيل فيه: «بدئت الكتابة بعبد الحميد، وانتهت بابن العميد». والختن في اللغة زوج الابنة أو زوج الأخت. والأقرب إلى الصواب هو أن سالما كان زوج أخت عبد الحميد، لأن عبد الحميد كتب في ديوان بني أمية بعد سالم، أي أنه كان أصغر منه سناً، وبالتالي فالأقرب إلى الصواب أن سالما تزوج أخته وليس ابنته.

وأول مايتبادر إلى الذهن من علاقة الكاتبين الأسرية هو أنه كان بينهما علاقة في العمل. وهذا مايقوله المؤرخون، حيث كان سالم أستاذ عبدالحميد في الكتابة[1]. وقد مر بنا في الفصل الأول أن عبد الحميد كان معلم صبيان في بداية حياته قبل أن يصير كاتباً.

وكان مما ترجمه سالم بعض رسائل أرسطو إلى الاسكندر فأسرد هنا ماوصلنا مترجما عن العربية من رسائل أرسطو إلى الاسكندر، تاركا البحث في أية واحدة منها كان من ترجمة سالم على الذين يطلعون على هذه الرسائل في أماكنها:

١) رسالة أرسطو إلى الاسكندر في واجبات الأمير. مخطوطة في الفاتيكان.

٢) رسالة أرسطو إلى الاسكندر في السياسة. مخطوطة في الفاتيكان، ومنها نسختان في كوبر يللي ونسخة في أيا صوفيا باستنبول.

---

(١) وفيات الأعيان ٢/٣٩٦.

٣) سر الأسرار. ونسخها كثيرة جداً مذكورة كلها في المرجع الذي نقلت منه، وهو «مخطوطات أرسطو بالعربية» لعبد الرحمن بدوي، كما أن رسالتين وجهها أرسطو إلى الاسكندر طبعتا في كتاب «مقالات فلسفية قديمة». وهما وصية أرسطو للاسكندر ورسالته إليه في السياسة.

كتاب التنجيم

وفي سنة ١٢٥هـ ترجم كتاب في التنجيم اسمه «عرض مفتاح النجوم» منسوب إلى هرمس الحكيم. وقد وصل إلينا هذا الكتاب فقد ذكر المستشرق نلّنو أنه «وجد نسخة منه في جملة ونيف وألف وستمائة مجلدة عربية خط يد اقتنتها في شهر نوفمبر الماضي (١٩٠٩م) المكتبة الامبروسيانية في ميلانو من مدن أيطاليا»[١].

وهذا الكتاب يتعلق بتحاويل سنيّ العالم ومافيها من أحكام النجوم. وهرمس هذا شخصية غامضة، وربما كانت شخصية خيالية. فكثرت عنه الأقوال بين المؤرخين، فمنهم من قال إنه أخنوخ المذكور في التوارة، ومنهم من قال إنه النبي إدريس، ومنهم من ذكر ثلاثة هرامسة وقال عن الثالث إنه «هرمس المثلث بالحكمة» ونسبوا إليه كتباً مختلفة في التنجيم والكيمياء والسحر[٢]. وقيل غير ذلك[٣].

ابن المقفع

وفي أواخر عهد بني أمية ظهر مترجمون كان جل نشاطهم العلمي في الترجمة. ومن هؤلاء عبد الله بن المقفع الذي ترجم كثيراً من كتب الفرس مثل «كليلة ودمنة» و«خداي نامة» و«آئين نامه» و«كتاب مزدك» و«كتاب التاج في سيرة أنو شروان»[٤]. وقد توفي ابن المقفع سنة

---

(١) علم الفلك عند العرب ١٤٢.
(٢) نلّنو ١٤٢.
(٣) الفهرست ٤١٧.
(٤) الفهرست ١٣٢ طبعة إيران.

١٤٢هـ ٧٥٩م. أي أنه أدرك عشر سنوات من عصر العباسيين، ولكن هذه السنوات العشر كان منها فترات مضطربة في بدايتها ونهايتها التي انتهت بإعدامه في عهد المنصور العباسي[1]. فنستنتج من هذا أن ابن المقفع قام بجزء من ترجماته خلال العهد الأموي، وجزء منها قد يكون أقل من الجزء الأموي أنجزه خلال العهد العباسي.

حسان الأنباري

ومن مترجمي أواخر العهد الأموي حسان بن أبي سنان الأنباري (٦٠ — ١٨٠هـ، ٦٨٠ — ٧٩٦م) الذي كان يكتب بالعربية والفارسية والسريانية. وكان نصرانياً فأسلم. وكان يعرب الكتب بين يدي ربيعة والي الأنبار على عهد السفاح أول حكام العباسيين. وقد أدرك حسان في حداثته الصحابي أنس ابن مالك رضي الله عنه في عهد الأمويين[2].

جبلة بن سالم

ومن أولئك المترجمين جبلة بن سالم. قال النديم: «جبلة بن سالم كاتب هشام. وقد مضى ذكره»[3]. فهذه العبارة تعني على الأرجح أن المقصود بكاتب هشام هو أبو العلاء سالم بن عبد الرحمن الذي ذكرناه، والمقصود بجملة «مضى ذكره» هو سالم أيضاً. حيث سبق أن ذكر النديم سالماً في كتابه قبل هذه العبارة، ولم يذكر جبلة قبلها.

وكان جبلة ناقلا من الفارسية إلى العربية. ذكر النديم اسم كتابين نقلهما. وهما كتاب «رستم واسفنديار» وكتاب «بهرام شوس»[3]. وموضوعهما تاريخ الفرس وسياسات ملوكهم.

أفكار عامة

ونختتم هذا الفصل بإيراد أفكار عامة عن الترجمة في ذلك العصر. فمن هذه الآراء ماأورده السيوطي في رسالته «صون المنطق والكلام عن

(١) الأعلام للزركلي.
(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١٠/١٧٥.
(٣) الفهرست ٣٠٥، ٣٦٤.

فن المنطق والكلام» في حديثه عن الترجمات الأولى من «أن علوم الأوائل دخلت إلى بلاد المسلمين في القرن الأول لما فتحوا بلاد الأعاجم، لكنها لم تكثر فيهم ولم تنتشر لما كان السلف يمنعون من الخوض فيها»(١).

ومن هذه الآراء ماذكره الباحثون عن المعتزلة أن أصحاب واصل بن عطاء أحد مؤسسي مذهب الاعتزال المتوفى سنة ١٣٣هـ ـــ ٧٢٨م (بعد أشهر من نهاية العهد الأموي) طالعوا كتب الفلاسفة وتأثروا باستدلالاتهم المنطقية. وهذا واضح لأن مذهب المعتزلة القائم على تحكيم العقل على النقل متأثر تأثرا واضحا بالمنطق اليوناني.

ومن هذه الآراء مارواه صدر الدين الشيرازي في كتاب «الأسفار الأربعة» نقلا عن «المطارحات» للسهرودي من أن المتكلمين الأوائل أمثال واصل بن عطاء وغيره «كان بأيديهم مما نقله جماعة في عهد بني أمية من كتبهم من كتب قوم أساميها تشبه أسامي الفلاسفة. فظن القوم أن كل اسم يوناني فهو فيلسوف. ووجدوا فيها كلمات استحسنوها وذهبوا إليها وفرعوها رغبة في الفلسفة. وانتشرت في الأرض وهم بها فرحون»(٢).

ومن هذه الأفكار ماقاله إحسان عباس في تقديمه لكتاب «عهد أردشير» الذي هو عبارة عن وصية من أردشير الكسرى الفارسي إلى ابنه سابور في تدبير الرعية، من أن الكتاب قد ترجم في الغالب أيام بني أمية. ودليله في ذلك أن الكتاب كان معروفا لدى عامة المثقفين في عهد الجاحظ والمبرد، وأن الترجمة في العهد الأموي كانت نشطة فيما يتصل بمواضيع السياسة وإدارة الحكم. وقد سرد بعضاً من أخبار الترجمة التي أوردناها في هذا الفصل(٣).

(١) صون المنطق ١٢.

(٢) مناهج البحث للنشار ٣.

(٣) عهد أردشير ـــ مقدمته ص ٣٤.

ومن هذه الأفكار مارواه المؤرخون عن وهب بن منبه اليماني المتوفي سنة ١١٤هـ ٧٣٢م ومن أنه كان كثير الأخبار عن الكتب القديمة عالما بأساطير الأولين ولا سيما الإسرائيليات. وقد قال عن نفسه أنه قرأ ٩٢ كتاباً سماوياً منها ٧٢ محجور عليها في الكنائس و ٢٠ بين يدي الناس في عصره لايعرفون أنها كتب سماوية. وقد ألف كتبا في تاريخ اليمن وأخبار الأنبياء وقصص الأخبار. ورووا أنه كان يعرف اليونانية والسريانية والحميرية ويقرأ خطوط الآثار القديمة[١].

فإذا صحت هذه الأخبار فإنها تدل على أن كتباً دينية وتاريخية كانت منتشرة في عصر وهب. والغالب أن وهباً يقصد أنها كانت بغير العربية. وعندما نذكر أنه ألّف في تلك المواضيع بالعربية فإننا نعني ضمنيا أنه ترجم المعلومات التي قرأها بلغات أخرى إلى العربية.

ومن الروايات الضعيفة عن الترجمة في ذلك العصر ماذكره الفيروزآبادي من أن ابن القريّة ترجم الكتب القديمة إلى العربية[٢].ويضعّف هذه الرواية مارواه المؤرخون الذين ترجموا لابن القرية من أنه كان أعرابياً لايقرأ ولايكتب[٣].

---

(١) الأعلام للزركلي.

(٢) تحفة الأبيه فيمن نسب إلى غير أبيه ــ نوادر المخطوطات ١٠٢/٢.

(٣) الأعلام للزركلي.

الفصل الخامس

علوم الفلك



رأينا في الفصول السابقة كيف نشطت البيئة الثقافية في بلاد الإسلام بحيث نمت الثقافة العربية وامتزجت بالثقافات الأخرى، ونشطت حركة الترجمة، فنستطيع بعد ذلك أن نستنتج أن العلوم الدخيلة على المسلمين أخذت تسلك طريقها بسهولة ويسر إلى الحياة الفكرية لديهم، وهذا ماترويه لنا الفصول التالية.

ونبدأ في هذا الفصل بعلم الفلك، وما يتصل به من علوم الجو والجغرافية، بالاضافة إلى التنجيم الذي يعتبره البعض علما إلى اليوم.

السريان والفلك

كان الفلك من ضمن العلوم التي اهتم بها السريان في ذلك العصر، حيث مر بنا في الفصل الثاني شيء عن اهتمامهم بالعلوم بشكل عام، فنلقي هنا نظرة على اهتمامهم بالفلك قبل أن نتعرف على مادخل على المسلمين من هذا العلم.

فمن الذين اهتموا به القس ساويرا سابخت الذي ولد في نصيبين، واشتهر أمره في قنسرين في حوالي منتصف القرن السابع الميلادي[١]. حيث ألف رسائل ومقالات عديدة في الحساب والفلك والاصطرلاب[٢]. وقد كان أسقف الكنيسة في قنسرين التي صارت تحت قيادته أكبر مركز لتعلم علوم اليونان في ذلك الزمان بمنطقة الشام[١].

من مؤلفاته: رسالة في الاصطرلاب (ألفها قبيل سنة ٦٦٠م) اعتمد

---

(١) Sarton, Intro. to the History of Science v.I, p. 493.

(٢) كرد علي، خطط الشام ١٩/٣.

فيها على مصادر يونانية. ورسالة في الحساب (ألفها سنة ٦٦٢م) وردت فيها أول إشارة إلى الأرقام الهندية خارج بلاد الهند. فكان ساويرا سابخت أحد أهم المصادر التي تعرف منها العرب على الأرقام الهندية التي أضيف إليها الصفر فيما بعد وتغيرت طريقة كتابتها قليلاً فصارت تعرف بالأرقام العربية. وكان ساويرا أحد أهم المصادر التي منها عرف العرب الاصطرلاب وهي آلة فلكية يطول شرح تركيبها واستخدامها. وقد نشرت مقالته في الاصطرلاب المسطح بالسريانية مع ترجمة فرنسية سنة ١٨٩٩م[1] في المصدر التالي:

F. Nau, Le traite'sur l'astrolabe plan de Sevefe Sabokt, Journal Asiatique, IX seŕie, t. XIII, 1899, P.56-101, 238-303

ومن مؤلفاته أيضاً: أبحاث في الخسوف والكسوف ودائرة البروج.

ومن جغرافيي ذلك العصر: يعقوب الرهاوي الذي ألف كتاباً شاملاً اسمه هكساميرون Hexaemeron، فكان الجزء الثالث من أجزائه السبعة يحتوي على أبحاث جغرافية[2]. وذكر نلّنو أنه قدر محيط الأرض بحوالي ٢٥٢,٠٠٠ اسطاديون، أو حوالي ٩٥٩٠ كيلو متراً[3]. وقد نشر كتابه هكسا ميرون بالسريانية مع مقدمة فرنسية للمستشرق هيلت Hjelt سنة ١٨٩٢م[2]. وقد توفي يعقوب سنة ٧٠٨م.

تراث العصر الجاهلي

فهذا الاهتمام بالفلك ومايتصل به من علوم كالجغرافية وغيرها قبل السريان كان أحد المصادر التي عرفها العرب. ولكن المصدر السابق لهذا كان ماعرفوه هم ـــ أي العرب ـــ من معارف موروثة عن أسلافهم عرب الجاهلية في مجال الأنواء ومعرفة البروج والمنازل والاعتقاد بتأثير النجوم وما

(١) Sarton. v.I,p. 493.

(٢) Sarton, v.I,p. 501.

(٣) نلّنو ص ٢٧٤، ٢٧٥.

إلى ذلك. فقد أشرنا في الفصل الأول إلى أن عرب الجاهلية ورد في أخبارهم وأشعارهم مايدل على شيوع معرفة الفلك والجو بينهم كجزء من معارف حياتهم اليومية.

وفي العهد الأموي ظل الشعراء يتحدثون عن تلك المواضيع في أشعارهم فهذا مليح بن الحكم بن صخر الهذلي، وهو شاعر مغمور كان أبوه من أهل النصف الثاني من القرن الأول الهجري، يقول:

عوارض من نوء السماكين مزنه ينحر في البيض الدمات وينتج
هملن به حتى دنا الصيف وانقضى ربيع وحتى هائج البقل أملج[1]

وتفسير هذه الأبيات: أن هناك سحبا تكونت من تغير الجو بسبب غروب السماك (وهو نجم في السماء) الذي سحابه يسيل في السهول الجرداء (لوفرة مائه) فهملت السماء (أي أمطرت بشكل مستديم مطرا متوسط الغزارة) حتى قارب الصيف وانتهى الربيع ويبست البقول.

فنلاحظ من هذا أن القدماء كانوا يعزون تغير الجو إلى تغير مواقع النجوم. وهم معذورون في هذا[2]، فما كانوا يعرفون أن الأرض تدور حول الشمس وتدور حول نفسها، وأن مستوى خط الاستواء مائل بالنسبة للمستوى الذي تدور فيه حول الشمس. فهذه الحقائق التي عرفناها في هذا العصر مانعرفه من تعليل لتغير الجو على مدار السنة.

ولكننا نلاحظ أن دوران الأرض حول الشمس بقربها على مدار السنة من كواكب معينة ويبعدها عن أخرى، ففي الربيع مثلاً تظهر كواكب

---

(١) نلّنو ٣١٧.

(٢) معذورون إن لم يعرفوا حكم شريعة الله. حيث سيمر بنا في الملحق الأول تحريم هذا الاعتقاد.

غير التي كانت في الخريف. وهذا الذي لاحظه الجاهليون، فظنوا أن ظهور الكواكب وغروبها هو الذي يسبب تغير الجو.

وقال الأخطل يذكر معركة:

تظل جيادنا متمطـــرات مع الجنب المعادل والمشاق
فإن يك كوكب الصمعاء نحساً بـــه ولدت وبالقمر المحاق[1]

وتفسير هذه الأبيات: تظل جيادنا مسرعة مع الجياد التي سقناها دون أن نركبها من باب الاحتياط. فإن يكن البرج الذي ولدت فيه الصمعاء (وهي أم عمير بن الحباب أحد مشاهير قتلى أعداء قبيلة الأخطل) برجاً منحوساً فإنها ولدت في ذلك البرج ليلة انمحى نور القمر في آخر الشهر القمري[1].

وروي أن الوليد بن يزيد كان في مجلس «أنسه» ندماء حضر منهم يوما الشاعر عبد الصمد بن عبد الأعلى والملحن المغني عمر الوادي، فألف عبد الصمد أبياتاً غناها عمر في المجلس، وهي:

ألم تر للنجم إذ سبّعا يبادر في برجه المرجعا
تحير عن قصد مجراتـــه إلى الغور والتمس المطلعا
فقلت وأعجبنـــي شأنـــه وقد لاح إذ لاح لي مطمعا
لعل الوليد دنا ملكه فأمسى إليه قد استجمعا[2]

وتفسير هذه الأبيات: ألم تر النجم قد تغير مساره بحيث يستبشر منه

---

(١) نلّنو ٣٢٩.
(٢) الأغاني ٧/١٠.

الخير، حيث أني تفاءلت بذلك واستبشرت بقرب تولي الوليد الملك (لعل الأبيات قيلت عندما كان الوليد ولياً للعهد في عهد هشام).

وقد كان المثقفون في ذلك العصر على معرفة بالفلك وعلوم الجو من باب الاطلاع العام. فقد مر بنا في الفصل الأول كيف أن التلميذ كان يتعلم الشعر من باب تعلم اللغة والبراعة فيها، فعندما يتعلم الشعر فإنه يواجه عبارات فيه قالها الشعراء عن الجو والفلك، فيستفسر عنها، وبذلك تصله المفاهيم التي كان الجاهليون يتطرقون إليها في مجال الجو والفلك.

روي عن عبد الملك بن مروان أنه قال يوماً للشعبي: «من أين تهب الريح؟» فقال: «لاعلم لي ياأمير المؤمنين». فقال عبد الملك: «أما مهب الشمال فمن مطلع بنات نعش إلى مطلع الشمس. وأما مهب الصبا فمن مطلع الشمس إلى مطلع سهيل. وأما الجنوب فمن مطلع سهيل إلى مغرب الشمس. وأما الدبور فمن مغرب الشمس إلى مطلع بنات نعش»[1].

وتفسير كلام عبد الملك: أن ريح الشمال تهب من الشمال الشرقي (حيث مطلع بنات نعش في الشمال ومطلع الشمس في الشرق) وريح الصبا من الجنوب الشرقي (حيث مطلع سهيل في الجنوب) وريح الجنوب من الجنوب الغربي وريح الدبور من الشمال الغربي.

وكان رجل يقول لعمرو بن دينار (الفقيه المحدث الذي توفي سنة ١٢٦هـ ٧٤٣م): «أنا أبصر بالنجوم»، فقال له عمرو: «أتعرف الهقعة والقنعة والوقعة؟» قال: «نعم» فقال عمرو: «الآن لاتعلم من النجوم شيئاً!!!»[2].

(١) مروج الذهب للمسعودي ٩٢/٣.

(٢) أخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي.

فلننظر كيف كان ابن دينار يعرف المصطلحات الفلكية بحيث استخدم كلمات ليست في الفلك، وهو واثق من أنها ليست في الفلك.

أوهام منسوبة لبعض المفسرين

وشاعت بعض الأوهام الخاطئة عن الفلك عند المشتغلين بعلوم الدين الإسلامي في ذلك العصر. ونقتبس هنا بعضاً من آراء الذين اشتغلوا بتفسير القرآن الكريم الذي وردت فيه آيات كثيرة تدعو إلى التأمل في الكون وإلى بيان عظمة الفلك. فلهذا يبدو أن أولئك المفسرين دخلت إليهم معلومات فلكية خاطئة من أهل الأمم الأخرى.

روي عن عطاء بن أبي رباح التابعي الفقيه المتوفي سنة ١١٤هـ ٧٣٢م أنه قال: «الشمس والقمر طولهما وعرضهما تسع مائة فرسخ في تسع مائة فرسخ. وعظم الكواكب اثنا عشر فرسخاً في اثنى عشر فرسخاً»[١].

وعن عكرمة البربري مولى ابن عباس، وهو تابعي مفكر مؤرخ توفي سنة ١٠٥هـ ٧٢٣م، أنه قال: «سعة الشمس مثل الدنيا وثلثها وسعة القمر مثل الدنيا سواء»[١].

وعن مقاتل بن سليمان المفسر المتوفي سنة ١٥٠هـ ٧٦٧م، أنه قال: «الكواكب معلقة من السماء كالقناديل».[١].

وكان محمد بن السائب الكلبي المفسر النسابة المتوفي سنة ١٤٦هـ ٦٨٣م، يرى أن السموات فوق الأرض كهيئة القبة الملتصق منها أطرافها[٢].

---

(١) البدء والتاريخ للمقدسي ٢/١٧.

(٢) البدء والتاريخ للمقدسي ٢/٦.

خالد بن يزيد

واشتغل خالد بن يزيد بن معاوية بعلوم الفلك والنجوم ضمن المعارف التي اهتم بها من قبيل الاطلاع، حيث كان هذا الأمير الأموي حكيماً مثقفاً طموحاً شغوفاً بالاستزادة من العلوم المختلفة، فجمع إلى معرفته بالأدب والشعر والفصاحة أن استقدم العلماء من مصر وغيرها فترجموا له كتب الكيمياء والطب والنجوم.

وقد وصلنا من آثار خالد في الفلك: «ديوان النجوم» وهو أبيات شعرية في التنجيم قد تصح نسبتها إليه أو لاتصح. ذكر بروكلمن أن نسخة منه توجد بمكتبة كوبر للي وأخرى بمكتبة جار الله، وكلتا المكتبتين في استنبول. كما ذكر نقلا عن كرنكو أن نسخة منه كانت موجودة بمكتبة الراهب أنستاس الكرملي ببغداد[١].

وبمناسبة الحديث عن كتاب منسوب لخالد بن يزيد يجدر بنا أن نتحفظ في قبول نسبة جميع الكتب المنسوبة إليه، طالما أن الأدلة غير متوفرة على أنه كان مؤلفاً في أي علم من العلوم الطبيعية أو غيرها. فهذا الكتاب ليس غرضه محاولة إثبات كل شيء منسوب لخالد بن يزيد، لأن تلك المحاولة تتنافى مع أصول البحث التاريخي. وإنما هدفنا هو بيان صحة مانسب إلى الرجل من اهتمام عام بالعلوم الأخرى لأن الأدلة تعضد بعضها البعض ويساند أحدها الآخر لكي توصلنا إلى نتيجة حتمية وهي أن الاهتمام بالعلوم الطبيعية في ذلك العصر كان حقيقة لايمكن إنكارها.

وذكر البيروني شيئاً من شعر خالد في الفلك والحساب الفلكي، حيث قال بأن عدد السنين بين آدم أبي البشر عليه السلام والاسكندر المقدوني هو ٥١٨٠ سنة، وأن هجرة الرسول ﷺ كانت سنة ٩٣٣

(١) بروكلمن ١/٢٦٣.

للاسكندر أو ٦١١٣ لآدم. والرقم الأخير من حساب السنين هو ماورد في شعر خالد. قال البيروني: «قال خالد بن يزيد بن معاوية ــ وكان أول فلاسفة الإسلام. وقيل إن علمه من الذي استخرجه دانيال من غار الكنز، وهو الذي أودعه آدم أبو البشر ماعلم ــ:

وفي تمام العشر من أعوام إلى ثلاث معهـا تمام
ومائة معدودة قد جمعت إلى ألوف سدست ونظمت
أظهر ديـن ربـه الإسلاما فالتـام بالهجـرة واستقامـا[1]

وبقيت الأدوات التي استخدمها خالد في انشغاله بالفلك زمناً طويلاً بعده. روى القفطي نقلاً عن ابن السبندي أحد علماء الفلك أن الوزير الجرجاني أمر بمصر سنة ٤٣٥هـ قبيل وفاته (حيث هو توفي في تلك السنة) بأن يعتني بخزانة الكتب بالقاهرة التي يبدو أنها كانت مهملة، فأمر بأن يصنع لها فهرست ويجدد تجليد ماتلفت جلوده. وذهب ابن السبندي ليطلع على الكتب الفلكية والفلسفية والرياضية، فوجد كرة نحاس من عمل بطليموس أحد علماء الجغرافية والفلك الذين مر ذكرهم في الفصل الثاني، وقد كتب على تلك الكرة: «حملت هذه الكرة من الأمير خالد بن يزيد بن معاوية»[2].

فمما سبق نتبين أن خالدا كان شغوفا بالفلك والنجوم. ولكن المستشرق نلّنو ظن أنه كان مشغوفا بالتنجيم وحده، حيث قال عنه: «والمحتمل أن كتب النجوم التي قيل أنها ترجمت له كانت كتبا في أحكام النجوم لافي علم الهيئة»[3]. ثم اعتبر ظنه حقيقة ثابتة، فقال بعد ذلك:

(١) الآثار الباقية ٣٠٢.
(٢) إخبار العلماء للقفطى ٤٤٠.
(٣) نلّنو ١٣٧.

«وتقدم ذكر الأمير خالد بن يزيد بن معاوية، وسعيه لاقتباس معرفة الأحكام والكيمياء»[1]. ويقصد بالأحكام التنجيم الذي يسميه «علم أحكام النجوم».

وقد ذهب نلّنو في اعتقاده ذلك المذهب لأنه بنى على فرضين أخطأ في كليهما: فقد افترض أولاً أن التنجيم علم، بينما هو شعوذة عند أهل العلم. والإسلام دين العلم حاربه، وقد كان خالد قريب العهد من الإسلام ويعرف حكم الشرع في ماسماه نلّنو «علم أحكام النجوم».

وافترض ثانياً أن العناية بالتنجيم كانت جديدة في العهد الأموي، وأن عرب الجاهلية لم يعرفوه، فكان شغف خالد بالتنجيم لكونه شيئاً غير مألوف لديه. وقد ناقشنا هذا الزعم الخاطيء في ملحق سيرد بآخر الكتاب.

والخلاصة أننا لانستطيع الجزم بأن خالدا كان يحب التنجيم دون علم الفلك، لأن الفروض التي بني عليها هذا الرأي ضعيفة.

كتاب هرمس

وفي سنة ١٢٥هـ ترجم كتاب في التنجيم إلى العربية وهو «عرض مفتاح النجوم» المنسوب إلى هرمس الحكيم. وقد مر بنا ذكر هذا الكتاب في الفصل السابق.

أخبار ضعيفة

ونختتم هذا الفصل بإيراد أخبار عن اهتمام الناس بالفلك في العصر الأموي دون أن يكون لها سند قوي يجعلها قابلة للتصديق.

فمن تلك الأخبار مارواه ابن تيمية في «مجموعة الرسائل الكبرى»

---

(١) نلّنو ١٤٢.

من أن قوماً من الإسماعيلية كانوا لايعترفون بتحكيم رؤية هلال رمضان وإنما كانوا يعتبرون دخول الشهر بالحسابات الفلكية. ونسبوا إلى الإمام جعفر الصادق المتوفي سنة ١٤٨هـ ٧٦٥م، جداول فلكية كانوا يعملون عليها[١].

وهذا خبر مستبعد، لأن انشغال جعفر الصادق بالفقه وعلوم الدين الإسلامي معروف. وهذا مايجعلنا نستبعد أنه كان فلكيا متخصصا يؤلف الجداول والمقالات. ورغم أنه كان غزير المعرفة بعلوم الفلسفة ومايتصل بها، وكان مطلعا على الكيمياء وعلم الأحياء كما سيرد في الفصول التالية، إلا أن ذلك الاطلاع كان من قبيل الاهتمام العام على الأرجح.

ومما نسب إلى الإمام جعفر رحمه الله «رسالة يعلم منها اختيارات الأيام النحسة والجيدة». مخطوط بالمكتبة الظاهرية بدمشق وهي طبعا من الكتب المنسوبة إليه زورا على الأرجح.

ومن تلك الأخبار مارواه حميد موراني وعبد الحليم منتصر في كتابهما «قراءات في تاريخ العلوم عند العرب» من أن الأمويين بنوا مرصدا في دمشق[٢] ولم يذكر الباحثان الفاضلان أي مرجع اعتمدا عليه عند إيراد هذا الخبر، وعلى كل فالخبر مشكوك فيه، لأن الاهتمام بالعلوم الطبيعية في ذلك العهد لم يصل إلى الحكام. فبناء المراصد وإنفاق الأموال عليها من الأمور التي يستطيع حصولها في ذلك العهد.

---

(١) ابن تيمية ٢/١٥٧.

(٢) ص ١٠٨.

وفي الأخبار الضعيفة عن الفلك في ذلك العصر مارواه المسعودي من أن عبد الملك بن مروان كان لديه منجم[1]، وما رواه ابن خلكان من أن الحجاج بن يوسف كان لديه منجم أيضاً[2]. وهذان الخبران ضعيفان لأن كلا من عبد الملك والحجاج كانا يعرفان حكم الدين في التنجيم بأنه خرافة غير معترف بها، فقد كان كلاهما من المتفقهين في الدين كما جاء في سيرتيهما والتنجيم محرم في الإسلام ويعتبر دجلا كما سيرد في الملحق الخاص بالتنجيم في آخر الكتاب.

(١) مروج الذهب ٣/١٠٦.

(٢) وفيات الأعيان ١/٣٤٤.



الفصل السادس

الكيمياء



كانت الكيمياء في العصور السابقة لعصر تطور العلوم المسمى بعصر النهضة الأوربية تنقسم إلى نوعين يقوم على كل منهما فريق لاعلاقة له بالآخر، أحدهما (ودعي السيمياء Alchemy) كان هدفه تحويل المعادن إلى ذهب. وكانت هذه صنعة الذين يشتغلون بالكيمياء كهواية علمية ممن سيرد ذكرهم في هذا الفصل.

والنوع الثاني كان العمليات الكيميائية التي لها دور أساسي في الصناعات التي لها علاقة بحياة الناس. ومن هذه الصناعات كانت العطارة والصيدلة وسبك المعادن. وقد أفردنا للصناعات القائمة على تطبيق العلوم الطبيعية فصلاً مستقلاً هو الفصل التاسع من هذا الكتاب. فنحن هنا نقتفي أثر نشأة الكيمياء الإسلامية في العصر الأموي، ثم عندما يأتي الحديث عن تطبيقات العلوم المختلفة سوف نرى ماكان للكيمياء من دور في ذلك في الفصل الخاص بذلك.

مريانس

تبدأ قصتنا في الإسكندرية، حيث عاش فيها قبيل الفتح الإسلامي فيلسوف مسيحي يدعى أدفر، كان شغوفا بالكيمياء، واشتهر بدراسته لكتب هرمس الكيميائية. وقد مر بنا في الفصلين السابقين أن هرمس شخصية غامضة نسبت إليها كتب في التنجيم، وقد نسبت إليه عدة كتب في الكيمياء[١]. وقال أوليري عنه بأنه كان السبب الأكبر في تحويل العلم المصري القديم إلى طريق السحر[٢].

(١) الفهرست ٤١٨.

(٢) الفكر العربي ٩٧.

وفي ذات الفترة عاش عالم آخر اسمه ستيفانس بنفس مدينة الاسكندرية، حيث صار فيما بعد سيميائيا ومنجما للامبراطور البيزنطي هرقل الذي افتتح المسلمون في عهده بلاد الشام ومصر. ومن كتاباته نشر آيدلر Ideler تسع مقالات في السيمياء. وقد نشرت تلك المقالات باللاتينية، وترجمت الثلاثة الأول منها إلى الانجليزية سنة ١٩٣٨م، وكان مترجمها تيلر Taylor[١].

وعلى يد أدفر وستيفانس تتلمذ شاب روماني اسمه مريانس، وبرع في دراسة الكيمياء، واعتكف عند موت أستاذه في دير قرب بيت المقدس، حتى سمع به خالد بن يزيد فاستقدمه إلى دمشق ليتعلم منه.

هذه القصة هي ماورد في كتاب اسمه «نشأة الكيمياء» de compositione alchemiae ترجمة روبرت الشستري Robert of Chester من العربية إلى اللاتينية سنة ١١٤٤م. ومنه نقل مؤرخو العلم الحديثون[٢]. فكان هذا الكتاب من أوائل كتب السيمياء التي نقلت إلى الغرب. وهو منسوب إلى خالد بن يزيد ومريانس. وكان من الكتب الهامة التي ظلت مرجعا لمدة طويلة بأوربا[٣].

ولعل ذلك الكتاب هو الترجمة اللاتينية للكتاب العربي الذي يجده القاريء منشوراً في ملحق بآخر كتابنا هذا، وقد نشرناه عن مخطوطة بالمكتبة الظاهرية بدمشق، وفيه يجد القاريء القصة الكاملة لخالد بن يزيد مع مريانس.

---

(١) Fuck, Ambix, Feb 1957, pp. 81-144.

(٢) مثل لكلير Lecrerc في كتابه «تاريخ الطب العربي» (بالفرنسية) وسارتن Sarton في «مقدمة إلى تاريخ العلم» (بالانجليزية). وأوليري O'lery في «الفكر العربي ومكانه في التاريخ» (مترجم إلى العربية).

(٣) سارتن ١٢٩/٢.

خالد بن يزيد

كان خالد من نوادر أقرانه في الثقافة الغزيرة، فقد كان خطيباً شاعراً أديباً فصيحاً جيد الرأي. وقد رأينا في الفصلين الثالث والرابع كيف بدأت الثقافات الأجنبية تدخل إلى بلاد العرب وخاصة في البلاط الأموي بدمشق، حيث كان النصارى يعملون في ديوان معاوية ويحفظون له حساب الخراج، ويترجمون له الكتب. ومن الكتب التي وصلت إلى البلاط الأموي كان كتاب ملك الصين الذي أهداه إلى معاوية، واحتوى على شيء جيد من العلوم التطبيقية. وقد وصل هذا الكتاب وأمثاله إلى يد خالد، فبدأ يهتم بأمر العلوم الطبيعية، ومنها الكيمياء.

فاستقدم جماعة من مصر لهذا الغرض، وأمرهم بترجمة كتب الطب والفلك والكيمياء. فكان من بين الذين ترجموا له شخص يدعى اصطفن[1].

قال النديم عن خالد: «وكان جوادا. يقال إنه قيل له: لقد جعلت أكثر شغلك في طلب الصنعة (أي السيمياء)! فقال خالد: ماأطلب بذلك إلا أن أغني أصحابي وإخواني. إني طمعت بالخلافة فاختزلت دوني، فلم أجد منها عوضاً إلا أن أبلغ آخر هذه الصناعة، فلا أحوج أحداً عرفني يوما وعرفته إلى أن يقف بباب السلطان رغبة أو رهبة. ويقال والله أعلم أنه صح له عمل الصنعة، وله في ذلك عدة كتب ورسائل. وله شعر كثير في هذا المعنى، رأيت منه نحو خمسمائة ورقة. ورأيت من كتبه: كتاب الحرارات، كتاب الصحيفة الكبير، كتاب الصحيفة الصغير، كتاب وصيته إلى ابنه في الصنعة»[2].

وعن كتب خالد قال ابن خلكان: «وله فيها ثلاث رسائل تضمنت

(١) الفهرست ٣٠٤.
(٢) الفهرست ٤١٩.

إحداهن ماجرى له مع مريانس المذكور، وصورة تعلمه منه، والرموز التي أشار إليها»[1]. وهي الرسالة التي يجدها القاريء منشورة بآخر كتابنا هذا. حيث بقيت محفوظة إلى عصرنا هذا، وبالإضافة إليها بقيت هذه الكتب التي سردها بروكلمن في كتابه «تاريخ الأدب العربي»[2]:

١ ــ **ديوان النجوم** : سبق ذكره في الفصل الخامس.
٢ ــ **رسالة الكيمياء** : بمكتبة رامبور بالهند.
٣ ــ **فردوس الحكمة** : بمكتبة بيروت ومنه نسخة مصورة في القاهرة.
٤ ــ **رسائل خالد لماريانس الراهب** : مكتبة شهيد علي (التابعة للمكتبة السليمانية باستنبول حالياً).
٥ ــ **رسالة ماريانس** : مكتبة الفاتح باستنبول، وهي نفس كتاب «نشأة الكيمياء» الذي ترجم إلى اللاتينية وذكرناه قبل قليل. وهي أيضاً على الأرجح الرسالة المنشورة بآخر كتابنا هذا.
٦ ــ **اختيارات خالد** : وهو ديوان في الكيمياء مع مقدمة نثرية: بمكتبة لاللي باستنبول.

وكثير من هذه الكتب لانستطيع الجزم بصحة نسبتها إلى خالد. إلا الكتاب الذي يتحدث عن علاقة ماريانس بخالد فالأدلة قوية على صحة هذه القصة كما أشرنا في عدة مواضع من هذا الكتاب.

قال حاجي خليفة عن كتاب فردوس الحكمة: «منظومة في قوافي مختلفة، وعدد أبياتها ألفان وثلاثمائة وخمسة عشر بيتاً.

(١) وفيات الأعيان ٢/٤.
(٢) ١/٢٦٣.
(٣)) كشف الظنون ١٢٥٤.

أولها : الحمد لله الفرد الواحد له العز والمجد:

الحمد لله العليّ الفرد الواحد القهار رب الحمد
ياطالبا بصناعة الحكماء خذ منطقا حقا بغير خفاء

وروى المسعودي هذه الأبيات لخالد :

خذ الطلق مع الأشق وما يوجد في الطرق
وشيئا يشبه البرقا فدبره بلا حرق
فإن أحببت مولاكا فقد سودت في الخلق[١]

وروى له رسكا هذه الأبيات :

هو الحجر المصاب بكل أرض وفي الأسواق تلقاه حقيرا
يضن به الجواد على أخيه إذا أضحى به يوما خبيرا[٢]

وكل ماسبق من أبيات يتحدث عن تحويل التراب إلى ذهب بشكل رمزي كعادة كل أهل السيمياء، ولا نستطيع الجزم بنسبة أي من تلك الأبيات إلى خالد.

أقف هنا قليلاً لأهمس إلى القاريء الهاوي للتاريخ مثلي بهمسة عن طريقة اتبعتها للتعرف على الكيميائيين في العصر الأموي. وهي أنني تتبعت سيرة الكيميائيين الذين عاشوا في نهاية العصر الأموي وبداية العباسي، فهذا يوصلنا إلى شيوخهم الذين عاشوا خلال العصر الأموي. فكما تعرفنا على مريانس واسطفان من خلال تتبعنا لسيرة خالد بن يزيد،

(١) مروج الذهب ٤/١٦٩.
(٢) J.Ruska, Arabische Alchemisten, II, P.30. الكيميائيون العرب (بالألمانية) ــ تأليف يوليوس رسكا.

نستطيع التعرف كذلك على شيوخ جابر بن حيان (وهو الوحيد الذي وصلنا خبره من الكيميائيين الذين عاشوا في نهاية العصر الأموي وبداية العباسي) من خلال تتبع سيرته، ومراجعة كتبه وآثاره.

حربي

فعندما توفي حيان العطار والد جابر (وسيرد ذكر حيان في الفصل التاسع) أصبح جابر يتيماً، فانتقل إلى أقاربه من الأزد في بادية الجزيرة العربية، وهناك شب وتعلم القرآن والحساب والكيمياء على يد رجل يدعى حربي الحميري[(١)].

وقد بحث المستشرقون عن حربي هذا، ومع ذلك ظلت أخباره نادرة. قال فلوجل Flugel: «لايوجد أي أثر عن حربي، إلا ماجاء في كتاب كودكس Codex، حيث ورد هناك: حربي يماني، وهو من جملة الرجال المعمرين على ماذكر في التواريخ والسير، وهو ممن ينتحل إليه علوم القدماء. وأشرف بالإسلام وعمره ١٧٠ سنة، حتى وصل إلى صحبة سيدنا جعفر الصادق رضي الله عنه. وجابر بن حيان رحمهما الله قرأ عليه علوم الفلاسفة قبل وصوله إلى خدمة السيد الصادق»[(٢)].

وقال دوج Dodge: «الحربي كان رجلاً من اليمن درس العلم الاغريقي، وصار ملازما لجعفر الصادق في القرن الثامن»[(٣)].

وقد كتب جابر رسائل عن التصحيحات والاضافات التي أدخلها شيوخه في الكيمياء، فكان من هذه الرسائل «كتاب مصححات حربي»[(٤)]. وذكره محمد بن اسحق النديم كواحد من «الفلاسفة الذين تكلموا في الصنعة»[(٥)].

---

(١) جابر بن حيان وخلفاؤه : محمد محمد فياض ٣٨.

(٢) تعليقات فلوجل محقق الطبعة الأوربية من «الفهرست» للنديم (بالألمانية) ص ٥٣.

(٣) تعليقات دوج مترجم «الفهرست» إلى الانجليزية ص ٩٩٥.

(٤) الفهرست ٤٢٢.

(٥) الفهرست ٤١٩.

الراهب

فهذا واحد من أساتذة جابر الذين عاشوا في العصر الأموي. وإذا تابعنا البحث عن أساتذته نجد من ضمنهم راهباً مسيحياً تتلمذ على مريانس أستاذ خالد بن يزيد، وأخذ جابر عن ذلك الراهب بعض معلومات في الكيمياء. حيث زاره جابر في صومعته، فأجرى له الراهب تجربة في استخلاص الذهب من شوائبه الترابية. وهذه القصة مفصلة في الرسالة التي يجدها القاريء منشورة بآخر كتابنا هذا بالإضافة إلى الرسالة التي سبق ذكرها عن مريانس وخالد بن يزيد وقد نشرها لأول مرة المستشرق بول كراوس Paul Kraus في مجموعة باسم «المختار من رسائل جابر بن حيان». وأعيد نشرها بكتابنا هذا لنفس السبب الذي من أجله نشرت مخطوطة دمشق، وهو إلقاء الضوء على قصة علمية وقعت في العصر الأموي. حيث نلاحظ أن ذلك الراهب تتلمذ على أستاذ خالد ابن يزيد، وأن خالداً أدرك أستاذه بعد أن شاخ ذلك الأستاذ وكبر. فنستنتج أن الراهب كان في سن خالد أو سبقه ميلاداً. وبالتالي فإن اللقاء تم في العصر الأموي خلال فترة شباب جابر، وبهذا نعتبر معلومات الرسالة من آثار العصر الأموي.

ولديّ ملاحظتان حول تلك الرسالة: الأولى تتعلق بأسلوب التقديس الذي يذكر به جابر أستاذه جعفر الصادق رحمه الله. وهذا التقديس ليس إلا شيئاً بسيطا من التقديس الذي تحفل به المؤلفات المنسوبة إلى جابر، مما يدل على أن كثيراً منها نسب إليه في القرون المتأخرة من قبل أناس من غلاة الشيعة والإسماعيلية ممن يقدسون آل البيت رضوان الله عليهم.

والملاحظة الثانية حول تلك الرسالة تتعلق باستخراج الذهب، ويظن القاريء لأول وهلة أن التجربة المذكورة شيء خرافي، حيث يوحي مؤلف الرسالة أن التراب والزئبق تكون منهما الذهب. ولكن علم الكيمياء

الحديث يفسر لنا ماحدث. فالأرض التي كان فيها الراهب احتوت على تربة غنية بالذهب، وكان الذهب مختلطا مع مواد أخرى أحرقها مع بعضها ليسهل استخراج الذهب من شوائبه، والمعادلة الكيميائية التالية توضح لنا عملية شبيهة بما حدث مع جابر والراهب.

ذهب + سيانور البوتاسيوم + ماء + أكسجين ⟵ ذهبي سيانور البوتاسيوم مكدر
(مختلط + ماء محمض
بشوائب) + هيدروكسيد البوتاسيوم

$$Au + 4\,KCN + 2H_2O + O_2 \longrightarrow 2K\,[Au(CN)_2] + 2KOH + H_2O_2$$

ثم يستخلص الذهب من المادة الناتجة بإحلال الزئبق محله، حيث الزئبق يأتي قبل الذهب في السلسلة الكهروكيميائية، فيحل محله في المركبات.

زئبق+ذهبي سيانور البوتاسيوم ⟵ زئبق سيانور البوتاسيوم + ذهب مصفّى[1]

$$3K[Au(CN)_2] + Hg \longrightarrow K_3[Hg\,(CN)_6] + 3\,Au$$

وكانت هذه الطريقة وغيرها من الطرق تستعمل لاستخلاص الذهب من شوائبه في أرض مصر الغنية بالذهب. ومن أرض مصر ظهرت هذه الطرق، ومنها ظهر الاهتمام بالذهب، ومنها ظهرت الكيمياء والسيمياء.

وهناك ملاحظة أخرى هامشية حول تلك الرسالة، وهي أنها تبين نزعة جابر إلى التحرر الفكري ووضع التجربة أساساً للعلوم، فهو لايقبل شيئاً دون أن يجربه، إذ قال للراهب: «أفدني ذلك لأشاركك في علمه وأحكيه عنك....» فقال له الراهب: «بطريقة هرمس المثلث بالحكمة» فقال جابر: «ماأثق بهذا القول حتى أرى التدبير، فإني أستبعد أن يكون

هذا الأمر على وجه التدبير لا على وجه الميزان بغير تصعيد ولاتقطير ولاتصدئة ولاتعفين» فنستطيع أن نستخلص من هذا أحد الدلائل التي تشير إلى اعتماد جابر للمبدأ التجريبي في العلوم قبل أن يأتي روجر بيكون الذي ينسب إليه ذلك المبدأ.

أساتذة آخرون لجابر

ومن أساتذة جابر الذين لم تصلنا أخبارهم رجل يدعى أذن الحمار. قال كراوس: «ثم يذكر جابر أستاذه حربي الحميري، وكذلك راهبا من الرهبان، ثم رجلاً يدعى أذن الحمار»[1]. ولم أجد شيئاً عن هذا الرجل سوى ماذكره نقلاً عن المخطوطات التي حققها لجابر.

ومن أساتذة جابر شخص معمر علمه الخط الحميريّ، قال جابر: «ولقد تعبت في استخراج الحميريّ تعبا ليس بالسهل، لأني لم أر أحدا يقول إنه سمع من يقرأ به، فضلا عن أن أرى من يقرأ به. إلى أن رأيت رجلاً له أربعمائة وثلاث وستين سنة، فكنت أقصده. فعلمني الحميري، وعلمني علوماً كثيرة»[2].

جعفر الصادق

ومن أساتذة جابر الإمام جعفر الصادق، ويجدر بنا أن نتوقف قليلاً لنحدد العلاقة بين جعفر وجابر. فالكتب المنسوبة إلى جابر تتحدث عن جعفر بالتقديس والتبجيل، وتطلق عليه من الصفات ماليس لبشر مثله، فتارة هو موسوعة حاوية لكل علوم الدين والدنيا، وتارة هو عارف بالغيب، وتارة هو كيميائي بارع يصنع الذهب من المعادن الرخيصة، علاوة على أنه ملم بالوحي حسب اعتقاد الاسماعيلية ـــ وهو مذهب شيعي متطرف ظهر في أواسط العصر العباسي ـــ وكتب جابر تحتوي على آراء إسماعيلية كثيرة، مما يدل على أنها ليست كلها من تأليف جابر.

(١) ماده جابر بن حيان في دائرة المعارف الإسلامية.

(٢) المختار من رسائل جابر ـــ تحقيق كراوس ٥٣٦.

وهذا ماجعل اناسا ينكرون وجود جابر، وينكرون قصة خالد بن يزيد وقصة جعفر الصادق، وينكرون أيّ اشتغال للمسلمين بالكيمياء قبل عهد المأمون العباسي. وهو رأي ضعيف جداً، فالبراهين على اهتمام خالد بالكيمياء ووجود شخصية جابر واطلاع جعفر الصادق على علوم الأمم الأخرى متعددة. فكل مصدر أورد هذه المواضيع بطريقة مختلفة عن المصدر الآخر، ومن المعروف لدى أهل التاريخ أن المجموعة من المعلومات التاريخية إذا وجد بينها تآلف وتناسق وأكدت بعضها بعضا ووجد بينها صلة وعلاقة، فإنها تكون مجموعاً متناسقاً يلمع الحق في ثناياه[١].

أما كون جعفر الصادق أستاذاً لجابر في الكيمياء فمسألة يجب الانتباه فيها، فكما رأينا فإن كتب جابر فيها مبالغة في تقديس جعفر. بل وفيها آراء إسماعيلية لم تظهر في عهد جابر، فهذا دليل على أن كثيرا من كتب جابر منسوب إليه وليس من تأليفه.

قال كراوس: «وقد ذكر الفيلسوف العالم أبو سليمان المنطقي المتوفى حوالي عام ٣٧٠هـ في «التعليقات» مامؤاده أنه كان ذا صلة شخصية بمؤلف الرسائل المنسوبة إلى جابر، وأن اسم هذا الرجل هو الحسن بن النكد الموصلي. وما من سبب للشك في صحة هذه الرواية، حتى لو ثبت أن رسائل جابر ليست لمؤلف واحد، أو أن مجموع تواليفه قد مر بمراحل من التطور طويلة قبل أن تثبت في صورتها الحالية. ولعلها ختمت حوالي عام ٣٣٠هـ»[٢].

فهل وجود جابر غير حقيقي؟ أو هل كان جعفر الصادق يجهل العلوم الطبيعية؟ الجواب عندي هو النفي. فالدلائل على وجود جابر

---

(١) منهج البحث التاريخي ــ حسن عثمان ١٥١.

(٢) مادة جابر في دائرة المعارف الإسلامية.

كثيرة. واطلاع جعفر الصادق على العلوم الطبيعية له براهين عدة نستعرض شيئاً منها في هذه الأسطر.

قال الحافظ أبو نعيم: «ولما كان الإمام الصادق طامياً لايدرك عبابه، تتفجر منه ينابيع العلوم والحكمة، كان يأوي إليه من لا يدين الإسلام، فيأخذون العلم عنه. فمنهم من يهتدي، ومنهم من يبقى على ضلاله، مع استفادته أنواع العلوم والحكم»[١].

وأبو نعيم هذا ليس شيعياً يتهم بمحاباة جعفر وتقديسه، فهو سني، ومحدث ثقة، سرد في كتابه سير جميع أهل البر والتقوى من السابقين.

وقد روى محمد يحيى الهاشمي في كتابه: «الكيمياء في التفكير الإسلامي» قصصا عن مجادلة جعفر للملحدين والزنادقة في أمور العقيدة بطرق فلسفية وبراهين منطقية[٢]. كما سرد روايات منقولة عن مصادر شتى تدل على معرفة جعفر المعادن والسبائك ومعالجة الخمر والخل[٣].

هذا مانستطيع قبوله عن معرفة جعفر الصادق بالعلوم الطبيعية، ولكن المصادر تتحدث عن مؤلفات كيميائية له كتبها جابر تلميذه. قال ابن خلكان عنه: «وله كلام في صنعة الكيمياء والزجر والفأل، وكان تلميذه جابر بن حيان الصوفي الطرسوسي قد ألف كتابا يشتمل على ألف ورقة تتضمن رسائل جعفر الصادق، وهي خمسمائة رسالة»[٤].

وطبع في أوربة كتاب منسوب إلى جعفر، وهو «كتاب رسالة جعفر

---

(١) حلية الأولياء ١٩٢/٣.

(٢) ص ١٢٠ ومابعدها.

(٣) ص ١٥٩ ومابعدها.

(٤) مادة جعفر بن محمد في وفيات الأعيان.

الصادق في علم الصناعة والحجر المكرم»[1]. وهو ليس من تأليف جعفر، وإنما هو منحول إليه على الأرجح.

والكتب المنسوبة إلى جابر تقدس جعفرا، ويرد مؤلفها علومه كلها إليه ويسميه «معدن الحكمة». ويصرح بأنه لم يبق له إلا جمعها وترتيبها.

وقد تقصى محمد يحيى الهاشمي العلاقة بين جابر وجعفر فخلص إلى الآراء التالية:

١) الصلة بين جابر بن حيان والإمام جعفر الصادق كانت صلة دينية توجيهية لاصلة مدرس للكيمياء مع تلميذ في مختبر.

٢) أن الكيمياء القديمة (أي السيمياء) تمشي مع الأفلاطونية الحديثة جنبا إلى جنب، ولها ناحيتان: ناحية تجريبية، وأخرى نظرية شديدة العلاقة بفكرة الوحي والإلهام. وهذا هو السر على مايظهر بعلاقة السيمياء بالصوفية والتدين الشرقي. وكل من الصوفية والافلوطينية يميل إلى الإلهام والباطن والفيض.

٣) أن جابر بن حيان كتب في ناحيتين: فلسفية نظرية، وعلمية تجريبية، وتأثير الإمام كان في الناحية الأولى.

٤) أن الإمام الصادق كانت له دراية واسعة بالفلسفة والمنطق بالإضافة إلى ماكان له من قدرة على عميق التفكير.

٥) أن الذين غالوا من الشيعة ألصقوا في الإمام الصادق ماليس فيه، فجعلوه عالم كيمياء يشتغل في المخبر، وجعلوه يحضر الذهب من جميع المواد.

٦) أن الذين غالوا في النقد حطموا كل صلة للصادق بجابر بن حيان، وأنكروا أنه كان على علم ولو بسيط بالعلوم الطبيعية[2].

---

(١) الهاشمي ــ الكيمياء في التفكير الإسلامي ٤٤ــ٦٠.

(٢) الكيمياء في التفكير الإسلامي ــ في عدة مواضع.

الفصل السابع

الطب



وقد كان الطب معروفاً عند العرب كما كان معروفا عند غيرهم من الشعوب، لأنه من الأشياء التي لايستغني مجتمع عنها مهما بلغت درجة تطوره وارتقائه. وكل مايختلف عليه قومان في أمر الطب هو كيفية العلاج لا أهميته، فترى أن العرب في الجاهلية تداوت بأشياء مجربة كالكيّ والأعشاب، وبأشياء وهمية كالسحر والكهانة.

وقد استمرت طرق العلاج التجريبية تمارس خلال العصر الأموي، أما طرق العلاج القائمة على الشعوذة فقد اندثرت مع ظهور شمس الإسلام.

معلومات العصر الجاهلي

فمن الأمراض التي عالجها العرب في الجاهلية وانتقلت طرق علاجها إلى العصر الأموي مرض الكلب. ذكر الجاحظ نقلا عن مصادر سابقة له أن الأسود بن أوس بن حمرة أتى النجاشي ملك الحبشة ومعه امرأته، فتعلم منه دواء الكلب. فلما رجع إلى بلاده مرض مرضة الموت، وعندما أحس بدنو أجله أوصى امرأته أن تتزوج ابنه (وهو نكاح المقت، حيث كان الجاهليون يتزوج فيهم أكبر أولاد الميت امرأة أبيه غير أمه) وأن تعلمه دواء الكلب، ولايخرج ذلك منهم، فتوارث أبناؤه ذلك العلاج إلى عهد الراوي في العصر العباسي[1].

فنستدل من هذا على أن العرب الجاهليين اتصلوا بالأمم الأخرى في سبيل تعلم الطب. فأضافوا بهذا إلى ماكان معروفا لديهم من أساليبه. ومن أهل العصر الجاهلي الذين تتلمذوا على الأعاجم في الطب نجد

---

(١) الحيوان ٢/١٠.

الحارث بن كلدة الثقفي الذي ولد بالطائف، وسافر إلى فارس واليمن، وتعلم الطب في فارس، وعاش إلى أيام رسول الله ﷺ، وأدرك جميع الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، وتوفي في عهد معاوية[1].

وكان الطب في عهد الراشدين يمارس من قبل بعض الأعراب تارة، ومن أناس غير مسلمين تارة أخرى. حيث بدأ العرب المسلمون يختلطون بغيرهم في ذلك العصر إثر الفتوحات الإسلامية. فنجد في عهد عثمان رضي الله عنه أن أحد الأعراب أصابته جراح، فجيء به إلى عثمان جريحاً فأرسله إلى طبيب نصراني كي يداويه[2].

فنستنتج من هذا أن الطب عند الأعراب عرف التأثير الخارجي منذ عصر الجاهلية، مروراً بالعهد الإسلامي الذي سبق العهد الأموي. أما في العهد الأموي فقد استمر طب الأعراب يمارس جنبا إلى جنب مع الطب الذي عرفته بلاد الإسلام من غير المسلمين في ذلك العهد.

طب الأعراب

فمن الأعراب الذين سمعنا عنهم ربضة بن النعمان الشيباني، حيث ورد في ترجمة شاعر من شعراء الدولة الأموية يدعى العديل بن أنوج من بني بكر بن وائل أنه أصيب بضربة سبف في رأسه، فأخذ عند أخواله من بين شيبان، فداواه ربضة[3].

ونلاحظ في العهد الأموي نزوح الأطباء من الأعراب إلى المدن الكبرى لممارسة مهنتهم. مما جعل الناس يسافرون إلى تلكم المدن للعلاج. ومن ذلك أن الفرزدق الشاعر مرض في شيخوخته بالدبيلة، وهو مرض في

(١) طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل ص ٥٤ وعنه نقل بقية مؤرخي الطب.
(٢) المغتالون لابن حبيب ١٥٦.
(٣) الأغاني ٣٥٦/٢٢.

الجوف[1] (لعله المعروف بالقرحة اليوم). فأتى به أهله إلى البصرة، وأحضروا له طبيباً من بني عبد القيس[2]، وهم من العرب النصارى الذين كانوا يستوطنون شمال الجزيرة العربية. والظاهر أنهم قدموا إلى البصرة عندما صارت مدينة كبيرة، حيث تأسست في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه لتكون قاعدة إمداد وثكنة للمجاهدين، ثم كبرت واتسعت بسرعة حتى صارت من أهم مراكز العلم والثقافة في العصر الأموي.

وأصيب عمر بن أبي ربيعة الشاعر بضربة في أسنانه بمكة، فأتى البصرة وعالجها[3].

وأصيب المتوكل الليثي الشاعر برمد شديد في عينيه بالحيرة، فمر به أحد القساوسة وعالجه بأن ذر في عينيه دواء الرمد[4].

فهذا الاستعراض السريع يعطينا صورة عن طب الأعراب في ذلك العصر، حيث كان لدى العرب أطباء أعراب، وآخرون عرب اتصلوا بالأمم الأخرى وعرفوا مالديهم من الطب، وقساوسة مارس بعضهم التطبيب.

اهتمام الحكومة بالطب

ثم بدأ الحكام من بني أمية وولاتهم بالاهتمام شيئاً فشيئاً بالطب ونشره بين الناس. وسبب ذلك فيما يبدو كان تفشي بعض الأمراض في الرعية مما لم يكن مألوفا من قبل، وذلك بسبب العمران وتكتل الناس في مناطق مزدحمة.

(١) القاموس المحيط.
(٢) الأغاني ٤١٢/٢١.
(٣) الأغاني ٢١٧/١.
(٤) الأغاني ١٦٢/١٢.

فمن ذلك أن زياد بن أبيه والي العراق على عهد معاوية كتب دواء الكلب وعلته (أي أسبابه وأعراضه) على باب المسجد الأعظم بالبصرة ليعرفه جميع الناس[١].

وعنادما تولى الوليد بن عبد الملك السلطة شغف بالعمران والاصلاحات العمرانية، وكان من ضمن ماهتم به بناء المستشفيات وتخصيص مرتبات مالية للعميان والمجذومين والزمنى[٢]. وذكر أحمد الشطي أنه أقام في دمشق مستشفى للمجذومين بالقرب من الباب الشرقي في محل يسمى اليوم بالأعاطلة. ذلك لأن في ماء دمشق على ماقيل خاصية دفع أمراض الجذام عن أهلها فلا يصيبهم إلا في النادر، وإذا حل الغريب المصاب به تكسرت عنه عاديته أو يتوقف سيره في جسمه. وقال الشطي: «وذكر بعضهم أن الوليد لما ولى إسحق بن قبيصة الخزاعي ديوان الزمنى بدمشق قال لأدعن الزمن أحب إلى أهله من الصحيح. وكان يؤتى بالزمن حتى توضعُ في يده الصدقة»[٣].

فالعناية بالمعوقين بدأت في عهد الوليد. ويروى كذلك أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان إذا كثر عنده الأرقاء من الذين يجلبون لبيت المال أسرى (وكان من قبله يحتكرونهم لأنفسهم) فرق بين كل مقعدين غلاما يخدمهما، وكذلك بين كل زمنين، وغلاماً لكل أعمى يقوده[٤].

وكما رأينا في الفصل الرابع فإن عمر لما تولى الخلافة وجد كتاب أهرن الجامع في الطب وقد ترجمه ماسرجيس إلى العربية مودعا في مكتبة بني

---

(١) الحيوان ١٣/٢.

(٢) العيون والحدائق ٤،١٢ ابن العبري ١١٣.

(٣) موجز تاريخ الطب عند العرب ــ للشطي ص ٥.

(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز ــ لابن عبد الحكم ٥٦.

أمية، فاستخار الله في إخراجه ونشره بين الناس، فلما تم له أربعون يوماً وهو يستخير الله جل وعلا نشره بين الناس وبثه في أيديهم.

ويبدو أن هذا الكتاب اشتهر بين الناس، فاشتهر صاحبه أهرن بينهم، فروي أن الحكم بن عبدل الشاعر المتوفي سنة ١٠٠هـ ٧١٨م (أي بعد نشر الكتاب بقليل، حيث تولى عمر الخلافة سنة ٩٩هـ وتوفي سنة ١٠١هـ) كان يمدح عبد الملك بن بشر بن مروان وينال منه الجوائز، وكان لعبد الملك كاتب يعارض أن تمنح الجوائز لذلك الشاعر هدراً. فأضمر له الحكم الكيد، فاتفق أن دخل يوما على عبد الملك وكاتبه هذا يساره بشيء (أي يهمس إليه بسر)، فأنشأ الحكم يقول من جملة أبيات:

لاتدن فاك من الأمير ونحه حتى يداوي مابأنفك أهرن[1]

اهتمام مثقفي العرب بالطب

وتعدى الاهتمام بالطب من الحكام إلى كبار رجالات العرب في ذلك العهد فكان عندهم شيء من الإلمام بمبادىء الصحة العامة كجزء من الثقافة التي لديهم.

فنرى مثلاً جعفر بن محمد بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: «الغلام يشب كل سنة أربع أصابع»[2]. فهذه الملاحظة البسيطة في نمو الطفل قد تدلنا على شيء من الاهتمام عند ذلك الرجل بالظواهر الصحية العامة.

وإياس بن معاوية المزني القاضي الذي يضرب المثل بذكائه وفطنته كان يقول: «صحة الأبدان مع الشمس» أي بالتعرض للشمس. قال الجاحظ معلقا على كلامه هذا: «ذهب إلى أهل العمد والوبر»[3]. أي ذهب

---

(١) الأغاني ٣٧٨/٢ الحيوان ٢٤٧/١.

(٢) العقد الفريد ٢٢١/٧.

(٣) الحيوان ١٠٥/٥.

تفكيره إلى ساكني الخيام من البدو فاستنتج من حيويتهم أن الشمس التي يتعرضون لها دائما هي سبب تلك الحيوية.

خالد بن يزيد

وخالد بن يزيد بن معاوية الذي تحدثنا من قبل عن اهتمامه بالكيمياء والفلك تُحدثنا المصادر أنه اهتم بالطب أيضاً. فتروي لنا الكتب المتأخرة أنه درس الطب على يد يحيى النحوي الملقب بالبطريق، والذي عاش بالديلم بفارس على عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه. قال البيهقي: «وكان نصرانياً فيلسوفاً، فأراد عامل أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه إزعاجه من فارس وتخريب ديره، فكتب يحيى قصته إلى أمير المؤمنين، وطلب منه الأمان، فكتب محمد بن الحنفية له كتاب الأمان بأمر أمير المؤمنين.

وقد رأيتِ نسخة هذا الكتاب في يدي الحكيم أبي الفتوح المستوفي النصراني الطوسي.... وكان توقيع أمير المؤمنين عليه بخطه: «الله الملك وعليّ عبده»[1].

وهناك أكثر من سبب يحملنا على تكذيب قصة يحيى النحوي هذه، ولكن جملة واحدة منها على الأرجح صحيحة وهي أن خالد بن يزيد عرف شيئاً من الطب، سواء على يد يحيى النحوي أو غيره وقد مر بنا في الفصل الثاني أن يحيى النحوي عاش بمصر وليس بفارس ولكن المصادر المتعددة التي ذكرت خالدا واهتمامه بالعلوم ذكرت الطب من جملة العلوم التي اهتم بها.

والرسالة المنشورة بآخر كتابنا هذا تحتوي على عبارات تتعلق بالطب وردت على لسان مريانس أستاذ خالد بن يزيد. فهو يقول مثلاً:

---

(١) تاريخ حكماء الإسلام ٣٩.

«وذكرت منها النطفة وتغيرها حتى تصير دما ثم مضغة ثم تتخلق بعد ذلك خلقا حتى تصير إنسانا تاماً». ويقول في موضع آخر: «الماء يذهب برائحة الميت الذي لاروح فيه». ويقول في موضع ثالث: «وأعلم أنك إن لم تحكم علاج الجسد الوسخ حتى تنقيه وقد حل الروح فيه حتى يقع فيه الصنيع وهو نقي طيب الرائحة ليس فيه وسخ ولا نتن فإنك لم تحكم من العمل شيئاً، واعلم أن الروح سريعة المشي في جسدها، وإن كلفتها المشي في غير جسدها لم تجب إلى الدخول فيه».

فهذه العبارات ومثيلاتها مما ورد في الرسالة المذكورة تتطرق إلى مفاهيم في الطب رغم أن الموضوع كان في السيمياء وليس في الطب. وذلك لأن العلوم الطبيعية مرتبطة ببعضها سواء في ذلك الزمان أو في عصرنا هذا.

وذكر حسن إبراهيم حسن أن خالداً طلب من مترجميه أن يترجموا كتب جالينوس في الطب «ووضع بذلك أساس التعاليم الطبية»[(١)]. ولم يقل لنا من أي المصادر نقل كلامه هذا، ولا دليل لدينا على أن خالداً سمع بجالينوس بله أن يطلب ترجمة كتبه. ففي العصر الأموي الذي نتحدث عنه لم يتصل المسلمون بالمدارس الطبية الكبرى، ولاتعرفوا على مالدى اليونان من علوم. وإنما كل مااستطاعوه هو بداية التعرف على مالدى جيرانهم النصارى المقيمين بمصر والشام والعراق من معارف في العلوم المختلفة.

أطباء ذلك العهد

ومن آراء حسن إبراهيم التي لم أجد أيّ مصدر يوثقها قوله: «كما استعان الأمويون ببعض الأطباء الذين كانوا يعملون في هذا المعهد الطبي (يقصد مدرسة جنديسابور التي مر ذكرها في الفصل الثاني) كابن أثال... وحكم الدمشقي وتياذوق وغيرهم»[(١)].

---

(١) تاريخ الإسلام ١/٥١٢.

فهو يقرر أن هؤلاء من خريجي جنديسابور دون أن يذكر أي دليل يؤكد كلامه هذا أو مصدر اعتمد عليه. فلا نستطيع القبول بهذا، وإن كنا لانستطيع نفيه كذلك، فقد يكون أحد أطباء ذلك العصر خريج جنديسابور أو غيرها من المدارس التي مر ذكرها في الفصل الثاني.

كان أطباء ذلك العصر يعيشون في عهد قد فقد فيه الطب الاغريقي قوته وحيويته التي كانت له من قبل. فلم يبق منه إلا تقاليد رثة في أيدي شارحي الأسفار القديمة ممن يكتبون اليونانية أو السريانية وسواهم من محترفي الطب. وكان أطباء العصر الأموي من هذا النفر[1]. فكأن الطب وغيره من العلوم الطبيعية كان ينتظر شمس الإسلام تسطع فتعطيه تلك الانطلاقة التي نعرفها خلال تاريخ الحضارة الإسلامية والتي نتحدث عن بدايتها في كتابنا هذا.

ابن أثال

فمن أطباء البلاط الأموي ابن أثال الدمشقي الذي تزعم الروايات أنه اختص بخدمة معاوية بن أبي سفيان، فكان يدس السم للمرشحين لمنافسة ابنه يزيد على الخلافة، وهو يتظاهر بعلاجهم، فقيل انه دس السم لعبد الرحمن بن خالد بن الوليد وللأشتر النخعي وللحسن بن على بن أبي طالب رضي الله عنهم. ورد هذا الخبر في عدة كتب موثوقة منها «عيون الأنباء» لابن أبي أصيبعة و«الوزراء والكتاب» للجهشياري و«الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر و«فتوح مصر» لابن عبد الحكم وغيرها.

أبو الحكم

وفي عهد عبد الملك بن مروان نسمع عن طبيب يدعى أبا الحكم كان نصرانياً عالما بأنواع العلاج والأدوية، وقد أدرك عهد معاوية ويزيد

(١) تاريخ العرب ــ فيليب حتي ٣٢٤.

ومروان وعبد الملك وعمر طويلا حتى تجاوز المائة سنة، ولايعرف تاريخ وفاته بالضبط، ولكن الثابت أنه أدرك عهد الوليد بن عبد الملك. فقد ورد أنه كان يعالج عبد الملك في مرض وفاته[1]

تياذوق

ومن وصلتنا أخبارهم من أطباء ذلك العصر تياذوق طبيب الحجاج ابن يوسف. وأكثر ماوصلنا من أخباره في الطب وصايا كان يوصي به معاصريه. فمن تلك وصايا للحجاج بقوله:

(١) لاتشرب دواء حتى تحتاج إليه.
(٢) ولا تأكل طعاماً وفي جوفك طعام.
(٣) وإذا أكلت فامش أربعين خطوة.
(٤) وإذا امتلأت من الطعام فنم على جنبك الأيسر (والصواب الأيمن لأن الكبد في الجانب الأيمن فإن نام الشخص على جانبه الأيسر فإنها تكون فوق المعدة ضاغطة عليها مانعة إياها من الهضم).
(٥) ولا تأكلن الفاكهة وهي مولية.
(٦) ولا تأكلن اللحم إلا فتياً.
(٧) ولا تنكحن عجوزاً.
(٨) وعليك بالسواك.
(٩) ولا تتبعن اللحم باللحم (أي لاتأكل وجبة لحم قبل أن تهضم الوجبة التي قبلها) فإن إدخال اللحم يقتل الأسود في الفلوات»[2].

وروي أن الهيثم بن عدي قال: «قلت لتياذوق: أوصني بشيء أحفظه عنك فإني مسافر، فقال: «لاتنامن حتى تعرض نفسك على الخلاء، ولا

(١) ابن أبي أصيبعة ١٧٥.
(٢) عيون الأنباء ١٨٠.

تذق طعاماً وفي معدتك طعام، واتق ماتخرجه النعجة والنحلة، فإن اعتللت فأنا الضمين، إلا علة الموت»[1]. ولديّ ملاحظتان على هذا الخبر: الأولى أن الهيثم ولد قبيل سنة ١٣٠هـ وتوفي سنة ٢٠٧هـ[2]. أي أنه لم يدرك تياذوق على الأرجح، لأن تياذوق توفي سنة ٩٠هـ، كما سنذكر بعد قليل. والثانية أن ماتخرجه النعجة والنحلة (أي اللبن والعسل) يوصي بشربها لابتجنبها.

ومن آرائه أنه شهد إعدام شيخ التابعين سعيد بن جبير رضي الله عنه من قبل الحجاج، حيث دار بين الاثنين حوار مثير كان من آخر عباراته أن قال الحجاج: «اختر أيّ قتلة أقتلك بها!» فقال سعيد: «بل اختر لنفسك ياحجاج، فوالله ماتقتلني بقتلة إلا قتلتك بمثلها يوم القيامة» فارتعب الحجاج من ذلك، ولكنه أصر على قتل ابن جبير رضي الله عنه. فلما قتل سال منه دم غزير لم يشهد الحجاج مثله في القتلى الذين كان يعدمهم في مذابحه، فارتجف الحجاج من ذلك، وسأل تياذوق عن السبب فأخبره بأن سعيداً قتل وهو مطمئن النفس لاأثر للخوف على أعصابه، ولم ينقطع نَفَسه من هول الموقف. ولذلك كانت عروقه متفتحة سال منها كل دمه، بعكس القتلى الآخرين الذين يسبب الخوف انقطاع النفس عندهم وانسداد العروق[3].

وعن آراء تياذوق يقول عمر فروخ: «ويبدو أن تياذوق كان لايزال يعالج العلاج الفطري القائم على المداراة، ولم يكن كثير الخبرة بالتطبيب المزاجي الذي كان قد بدأ يصل إلى أطباء زمانه» ثم قال عن نصائحه

(١) المحاسن والمساوىء ٤٧٥/١.
(٢) ابن خلكان ١١٣/٦ (تحقيق إحسان عباس).
(٣) مصادر ترجمة ابن جبير، منها «شذرات الذهب» لابن العماد و«وفيات الأعيان».

الطبية: «وفيها كثير من آراء البداوة، وقليل من آراء أبقراط وجالينوس، ولكنها قليلة الصلة بعلم الطب المزاجي»[1].

ويبدو أن آراء تياذوق ونصائحه لقيت اهتماماً من بعض المتأخرين في العصور الإسلامية التالية، ففي مكتبة بنكيبور بالهند توجد قصيدة بالفارسية قيل إنها مترجمة من العربية، وأن قائلها بالعربية هو تياذوق، وأن الذي ترجمها هو الشيخ الرئيس ابن سينا[2]. ولعل المترجم الفارسي ترجم نصائح تياذوق العادية ولم يكن ماترجمه شعراً لتياذوق.

وقد مات تياذوق بعدما أسن وكبر بمدينة واسط (التي بناها الحجاج واتخذها مقراً له) في نحو سنة ٩٠ هـ ٧٠٩م[3].

ولتياذوق كتاب «إيدال الأدوية وكيفية دقها وإيقاعها وإذابتها وشيء من تفسير أسماء الأدوية». وإيدال الأدوية أي مخضها أو مزجها بالماء وتحريكها. وهذه الرسالة محفوظة ضمن المخطوطة رقم ٤٨٣٨ بمكتبة آياصوفيا باستنبول (الورقات ١٩٧ب إلى ٢٠١ب)[4]. ولتياذوق من الكتب أيضاً «كناش» كبير ألفه لابنه والكناش هو الكتاب الجامع في الطب[5].

ثاودون

ومن أطباء ذلك العصر ثاودون الذي ورد ذكره عند ابن العبري والقفطي كواحد من أطباء الحجاج، وأنه دخل على الحجاج يوما وهو يأكل الطين، فقال الحجاج: أي شيء دواء أكل الطين؟ فقال: «عزيمة

---

(١) العرب في حضارتهم ١٩٧.
(٢) بروكلمن ١/٢٦٣.
(٣) عيون الانباء ١٨٠.
(٤) بروكلمن ١/٢٦٤.
(٥) ابن أبي أصبيعة ١٨٠.

مثلك أيها الأمير» فرمى الحجاج بالطين ولم يعد إلى أكله[1]. وقد كتب كناشا كبيرا ألفه لابنه. وقد يكون هو تياذوق نفسه، حرف اسمه فظنه المتأخرون من المؤلفين شخصاً غيره فجعلوه شخصين.

ابن شحناثا

ومن أطباء ذلك العصر كان فرات بن شحناثا اليهودي تتلمذ على تياذوق، فكان مكرما لديه من بني تلاميذه الآخرين. وقد خدم الحجاج بن يوسف وهو شاب، وصحب في آخر عمره عيسى بن موسى العباسي ولي العهد في أيام المنصور[2].

ماسرجيس

ومن أطباء ذلك العصر ماسرجيس الذي سبق ذكره في الفصل الرابع، حيث ترجم كناش أهرن إلى العربية، وأضاف مقالتين إلى مقالاته الثلاثين. وقد بينا خطأ الخلط بينه وبين ماسرجويه الذي عاش في العصر العباسي، حيث أرجح اعتماد قول النديم في كتابه «الفهرست» بأن اسمه ماسرجيس، لأن النديم كان أقرب إلى مكان وقوع الحادثة أولاً من ابن جلجل، وثانياً لأنه وراق عاش بين الكتب وكان مدققا فاحصا لمعلوماته. وقد مر بنا في الفصل الرابع أن اسم ماسرجيس ورد في شعر لابن مناذر المتوفي سنة ١٩٨هـ.

ومن أخطاء المعاصرين عن ماسرجيس ماذكره شوقي ضيف من أن عمر بن عبد العزيز أمره بترجمة كتاب أهرن[3]. والصواب أن الكتاب ترجم قبل عمر، ووجده عمر في مكتبة القصر عندما تولى الخلافة فنشره بين الناس.

(١) ابن العبري ١١٣ والقفطي ١٠٨.
(٢) القفطي ٢٥٥.
(٣) العصر الإسلامي.

ابن أبجر

ومن الأطباء في ذلك العصر عبد الملك بن أبجر الكناني الكوفي الذي وقع خلط كبير في اسمه مثلما وقع في اسم ماسرجيس. وصاحب الخلط هو ابن أبي أصيبعة مرة أخرى. فقد قال عنه: «عبدالملك بن أبجر الكناني: كان طبيبا عالما ماهرا. وكان في أول أمره مقيما في الإسكندرية لأنه كان المتولي التدريس بها من قبل الاسكندرانيين الذين تقدم ذكرهم، وذلك عندما كانت البلاد لملوك النصارى. ثم إن المسلمين لما استولوا على البلاد وملكوا الإسكندرية أسلم ابن أبجر على يد عمر بن عبد العزيز، وكان حينئذ أميرا قبل أن تصل إليه الخلافة، وصحبه. فلما أفضت الخلافة إلى عمر ـــ وذلك في سنة تسع وتسعين للهجرة ـــ انتقل التدريس إلى أنطاكية وحران وتفرق في البلاد. وكان عمر بن عبد العزيز يستطب ابن أبجر ويعتمد عليه في صناعة الطب»[1]

فلاحظ الخلط الذي وقع فيه ابن أبي أصيبعة في الآتي:

١ ـــ أن ابن أبجر عاش قبل الفتح الإسلامي وأنه كان كبير المدرسين بمدرسة الإسكندرية قبل فتحها سنة ١٥هـ أي كان في حدود الأربعين على الأقل. وبالتالي كانت ولادته حوالي سنة ٢٥ قبل الهجرة.

٢ ـــ وأنه أسلم على يد عمر بن عبد العزيز الذي كان واليا على مصر من سنة ٨٦ إلى ٩٣ للهجرة. أي أنه كان يبلغ حوالي ١١٥ سنة عندما أسلم وصار من أصحاب عمر!!.

فهذا تناقض واضح! وابن أبجر الذي كان يعيش في عصر بني أمية لاتتعدى ترجمته الموثوق بها ماقاله ابن مجلجل عنه: «كان طبيبا عالما،

(١) عيون الأنباء ١٧١.

وكان في أيام بني مروان، وكان عالما نحريرا. وروي أن عمر بن عبد العزيز كان يبعث إليه بمائة»[1].

وقد بحث المستشرق فان أرندونك Van Arendonk عن ابن أبجر، فوجد أن ابن قتيبة ذكر في «المعارف» أن بني أبجر ينتسبون إلى بني فراس من كنانة، وأنهم كانوا أطباء في الكوفة. ووجد في «تهذيب التهذيب» للحافظ ابن حجر العسقلاني أن عبد الملك بن سعيد بن حيان بن أبجر الهمداني الملقب بالكناني الكوفي كان من أطب الناس، فكان لايأخذ عليه أجراً. وأنه توفي بعد سفيان الثوري الكوفي المتوفي سنة ١٦١هـ ٧٧٨م[2].

قال ميرهوف: «ولما كان ابن أبي أصيبعة يذكر رواية لسفيان عن عبد الملك بن أبجر، فنحن أمام فرضين: فإما أن يكون هذا الأخير قد عاش بالضرورة بعد الخليفة عمر بن عبد العزيز بكثير (توفي عمر سنة ١٠١هـ ٧٢٠م) وإما أن نكون بإزاء طبيبين مختلفين اسمهما واحد. وثاني هذين الفرضين أكثر احتمالا. خصوصا إذا لاحظنا أن اسم أبجر كان شائعاً في شمال العراق (جريا على اسم الملك أبجر السرياني المسيحي)، وخليق بنا أن نذكر أيضاً أن ابن أبي أصيبعة في الترجمة السابقة على ترجمة ابن أبجر يورد اسم هذا الأخير على أنه ممن رووا كلاماً يتعلق بابن أبي رمثة التميمي الذي كان طبيبا في عهد رسول الله (ﷺ).

فمن الممكن إذن أن ابن أبجر قد كان طبيبا وصديقا للخليفة عمر ابن عبد العزيز، أما دوره رئيساً لإحدى المدارس في الإسكندرية فمن المؤكد أنه خرافي»[3].

---

(١) طبقات الأطباء والحكماء ٦٢.

(٢) ميرهوف ــ من الإسكندرية إلى بغداد ٦٦.

(٣) المصدر السابق.

وقد أدى الخلط الذي وقع فيه ابن أبي أصيبعة إلى خلط كثير بين معاصري المؤرخين ممن نقلوا كلامه دون تمييز.

فمن هؤلاء عمر فروخ الذي يقول: «وكان في مصر قبل الفتح الإسلامي طبيب عالم ماهر يتوى التدريس في الإسكندرية. هذا الطبيب يعرف باسم عبد الملك بن أبجر الكناني. ويبدو لنا أنه اتخذ هذا الاسم العربي والنسبة العربية بعد أن أسلم على يد عمر بن عبد العزيز حينما كان عمر والياً على مصر من سنة ٨٦ إلى ٩٣هـ (٧٠٠ ــ ٧١١م)»[١].

فأول شيء مستبعد في هذه العبارة هو أن ابن أبجر كان عالما ماهرا ناضجا مكتمل النمو في عهد ماقبل الفتح الإسلامي (١٥هـ) ثم يعيش إلى زمان ولاية عمر على مصر فيسلم على يده ويصحبه. والخطأ الأوضح في العبارة أن الذين يسلمون في ذلك العصر لم يكونوا يختارون اسما عربيا لآبائهم، ولا كانوا ينتسبون بنسب عربي أو كان لديهم مايعرف اليوم باسم العائلة أو الاسم الأخير أو اللقب. ولم يثبت أن ابن أبجر كان مولى لبني كنانة حتى ينسب إلى مواليه.

وقال فؤاد سيد محقق كتاب ابن جلجل في مقدمة الكتاب بأن شخصا يدعى أدفر تتلمذ عليه مريانس معلم خالد بن يزيد الكيمياء يحتمل أن يكون هو ابن أبجر الذي أسلم على يد عمر بن عبد العزيز. ولكننا نكرر بأن الزمن لايمهل أحدا فإذا كان أدفر معلم مريانس فمعنى ذلك أنه لم يلحق خالد بن يزيد أي لم يلحق عهد مروان بن الحكم الذي بدأ فيه خالد يتعلم شيئاً من العلوم الطبيعية. فكيف يعيش إلى عهد عمر ابن عبد العزيز[٢]!.

(١) العرب في حضارتهم ١٩٨.

(٢) انظر جدول خلفاء بني أمية أول الكتاب.

اخرون

هذا ماذكرته المصادر عن أطباء العصر الأموي، وهناك أطباء آخرون ورد ذكرهم في كتاب «مختصر في تاريخ الطب وطبقات الأطباء العرب» لأحمد الشطي لم أجد عنهم شيئا يذكر في المصادر، وأورد أخبارهم هنا كما ذكرها الشطي:

١ — **أحمد بن إبراهيم** : طب للخليفة يزيد بن عبد الملك في أول القرن الثاني للهجرة. وله كتاب في أصول الطب ورسالة في النبات المستعمل في الطب.

٢ — **ابن أبي زاهر** : ألف في النبات في نحو ١٢٥هـ ٧٤٢م.

وذكر الشطي أيضاً اسم محمد بن سيرين التابعي المحدث المشهور بتفسير الأحلام كواحد من الأطباء، ولا أدري ماعلاقة تفسير الأحلام بالطب.

أنواع العلاج

هذا عن الأطباء في ذلك العهد. فأتي الآن إلى الحديث عن أنواع العلاجات التي كانوا يقومون بها.

فمن ذلك علاج ضيق النفَس. روي أن خالداً ابن عبد الله القسري عندما عزل وعذب لكي يقر بالأموال التي اختلسها حصل نفس الشيء بالنسبة لأصدقائه. فأحضر الوالي الجديد يوسف بن عمر العالم عيسى ابن عمر الثقفي النحوي اللغوي وضربه ضربا شديدا ليقر بوديعة استودعه إياها أحد أصحاب خالد.

قال علي بن محمد بن سليمان: رأيت عيسى بن عمر طول دهره يحمل في كمه خرقة يحمل فيها سكر العشر والإجاص اليابس، وربما رأيته واقفا عندي أو سائرا أو عند ولاة البصرة، فتصيبه نهكة على فؤاده فيخفق عليه حتى يكاد يغلب، فيستغيث بإجاصة وسكرة يلقيها في فمه ثم

يمتصها. فإذا ازدرد من ذلك شيئاً سكن عليه. فسألته عن ذلك فقال: أصابني هذا من الضرب الذي ضربني يوسف بن عمر، فعالجته بكل شيء، فلم أجد أصلح من هذا[1].

العُشَر (بضم العين وفتح الشين) من كبار الشجر، وله سكر يخرج من فروعه ومواضع زهره، والإجاص هو الكمثرى.

ومن العلاجات البسيطة التي كانت معروفة في ذلك العصر كان علاج حالة السُّكر أو الثمالة من شرب الخمر. فمن ذلك أن عبد الرحمن ابن سليمان كان حليفاً لقريش نديما للوليد بن عثمان بن عفان، فأصابه ذات يوم خمار، وهو مايصيب المرء من ألم الخمر وصداعها وغيبوبتها، فذهب لسانه وانعدم نطقه وسكنت أطرافه. وصرخ أهله عليه، فأقبل الوليد إليه فزعا، فلما رآه قال: أخي مخمور ورب الكعبة. ثم أمر غلاماً له فأتاه بشراب من منزله في إدواة، فأمر به فسخن، ثم سقاه إياه وقيأه، وصنع له حساء، وجعل على رأسه دهنا، وجعل رجليه في ماء ساخن، فما لبث أن انطلق، وذهب ماكان به[2].

وقد مر بنا في بداية هذا الفصل أن علاج مرض الكلب كان معروفا، وأن زياد ابن أبيه قد نشره على الناس بباب المسجد الجامع بالبصرة.

ومن أنواع المعالجة التي عرفت في ذلك العصر أن كان الطبيب يكشف مابداخل المريض. فمن ذلك أن الحجاج أصابته الأكلة في بطنه، فدلى الطبيب لحما معلقا في خيط إلى جوفه، فخرج اللحم مملوءا دودا[3].

---

(١) ريحانة الألباء لابن الأنباري ٢٢/١.

(٢) الأغاني ٢١٠/٢.

(٣) شذرات الذهب ١٠٧/١.

بتر الأعضاء

أما الجراحة فقد عرف شيء منها، وخاصة بتر الأعضاء التالفة. فمن ذلك أن زياد ابن أبيه كتب إلى معاوية يقول: ضبطت لك العراق، ويميني فارغة لطاعتك، فولِّني الحجاز. فبلغ ذلك عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وكان مقيما بمكة. فقال: «اللهم اشغل يمين زياد». فأصابه الطاعون أو الأكلة، فجمع الأطباء فأشاروا عليه بقطعها، فاستشار شريحاً القاضي في ذلك، فقال له شريح: «إن كانت مدة تعش بلا يمين، وإن كان قد دنا أجلك تلق ربك مقطوع اليد، فإذا قال لك: لم قطعتها؟ قلت: بغضا للقائك وفرارا من قضائك». ولم يقطعها، فمات من يومه[1].

وقدم عروة بن الزبير بن العوام رضي الله عنهما إلى الوليد بن عبد الملك زائراً، فوقعت في رجله الأكلة، فدعوا الجزار ليقطعها، فقيل له: نسقيك الخمر حتى لاتجد لها ألما، فقال: لأستعين بحرام الله على ماأرجو من عافية. قالوا: فنسقيك المرقد (أي المخدر)، قال: ماأحب أن أسلب عضوا من أعضائي وأنا لاأجد ألم ذلك فأحتسبه.

ودخل عليه قوم لم يعرفهم من قبل، فقال: ماهؤلاء؟فقالوا: يمسكونك، فإن الألم ربما عزب مع الصبر. قال: أرجو أن أكفيكم ذلك من نفسي، فقطعت كعبه بالسكين، حتى إذا بلغ العظم وضع عليها المنشار فقطعت وهو يهلل ويكبّر. ثم أغلي له الزيت في مغارف الحديد فحسم به، فغشي عليه، ثم أفاق وهو يمسح العرق عن وجهه.

وقد قطعت رجله في مجلس الوليد مشغول عنه بمن يحدثه، فلم يتحرك، ولم يشعر الوليد أنها قطعت حتى كويت فوجد رائحة الكي[2].

(١) شذرات الذهب ١ /٨٥.

(٢) وفيات الأعيان ٢٥٦/٣ (طبعة إحسان عباس) والمعارف لابن قتيبة.

أخبار ضعيفة

وختاما لهذا الفصل نذكر فيما يلي الحكايات التي وردت عن الطب في ذلك العصر ولايحتمل تصديقها.

فمن ذلك أن سكينة بنت الحسين رضي الله عنه خرجت بها سلعة (وهي كالغدة تمور بين الجلد والعظم إذا ضغطت، ويكون حجمها من قدر حمصة إلى قدر بطيخة) في أسفل عينها. فكبرت حتى أخذت وجهها وعينها، وعظم شأنها. وكان طبيب يدعى بدراقس يخدمها، فقالت له: «ألا ترى ماوقعت فيه؟» فقال لها: «أتصبرين على مايمسك من الألم حتى أعالجك؟ قالت: «نعم». فجعلها تضطجع، وشق جلد وجهها حتى ظهرت السلعة، ثم كشط الجلد عنها أجمع، وسلخ العظم من تحتها حتى ظهرت له عروقها، وكان منها شيء تحت الحدقة، **فرفع الحدقة عنها حتى جعلها ناحية**. ثم سل عروق السلعة فأخرجها أجمع. **ورد العين إلى موضعها وعالجها**، وسكينة **لاتتحرك ولا تئن حتى فرغ مما أراد**. فزال ذلك عنها وبرئت منه. وبقي أثر تلك الجراحة في مؤخر عينها، فكان أحسن شيء في وجهها من كل حلي وزينة، ولم يؤثر ذلك في نظرها ولا في عينها[1].

ففي هذه القصة عدة عبارات واضحة التلفيق لاتحتاج إلى مناقشة لتفنيدها، وخاصة ادعاء أن الجراح يرفع الحدقة ويضعها جانبا ثم يردها إلى مكانها وكأنها قطعة غيار من حديد!

ومن ذلك أيضاً أن حكيما قال لسليمان بن عبد الملك: «عندي لك (أي عندي دواء يسبب لك) أن تأكل ولا تشبع، وتنكح ولا تغتر، ويسود شعرك ولايبيض»[2].

---

(١) الأغاني ١٦/١٠٧.

(٢) شذرات الذهب ١/١١٦.

وتقول القصة بأن سليمان لم يقبل ذلك، وفضل أن يكون طبيعياً والتاريخ يقول العكس عن سليمان الذي كان شغوفا بالأطعمة طوال حياته. والمنطق يقول بأن مزاعم ذلك «الحكيم» خيالية، ولاتطبق عمليا حتى في عصرنا الذي حقق المعجزات وما يفوق التخيلات.

الفصل الثامن

علوم الحيوان



وكما كان الطب مهما للبشر في جميع العصور ومعروفاً عند جميع الأقوام، فكذلك كانت رعاية الحيوان والعناية به وبعلاجه ودراسة حياته وتطور الاستفادة منه مما عرفته المجتمعات المتحضرة التي عرفت استئناس الحيوان. وفي عهد العرب في الجاهلية عرفت العناية بالجمل والخيل مثلا، ومن أشهر الأمراض المعروفة في ذلك الوقت كان الجرب، حيث كانوا يعالجونه بالقطران كما هو معروف. علاوة على أمراض أخرى عرفوا تطبيبها.

تراث العصر الجاهلي

وفي العهد الأموي كانت المعارف الموروثة من العهد الجاهلي تمشي جنباً إلى جنب مع المعارف التي دخلت إلى القوم من الأمم الأخرى.

فمما عرف في ذلك العهد مما يتعلق بالحيوان كان تفقيس البيض الاصطناعي. فبعد أن تبيض الدجاجة يسحب منها بيضها، وقد تذبح هي فلايبقي من يحضن ذلك البيض، وفي هذه الحالة يوضع في مكان مناسب الحرارة مع تبن وسرجين، ويترك حتى يفقس وهذا ما جاء في طرفة لأشعب تزعم أن سكينة بنت الحسين أدخلته مع البيض والتبن والسرجين في حجرة، وحلفت ألا يخرج من تلك الحجرة حتى يحضن ذلك البيض كله إلى أن ينقب ففعل ذلك، ولم يزل يحضنه حتى نقب كله فخرج منه ألوف الفراريج[1]!!.

---

(١) الأغاني ١٦/٩٨.

البيطرة

وقد عرف ذلك العهد البيطرة، ووصلتنا حكاية ورد فيها اسم بيطار في ذلك الوقت. فقد كان هشام بن عبد الملك يشرف يوماً على استعراض عسكري لجنوده، وكان هشام أحول العين فنفر حصان لرجل من أهل حمص حين رأى هشاماً. فقال هشام «ويلك، تركب مثل هذا الفرس. فإن نفر بك في حرب صرعك وهلكت» فقال الحمصي «والرحمن ما هذه عادته، ولكنه شبهك بغزوان البيطار»[1]. قال الرواة: وكان غزوان البيطار نصرانياً ببلاد حمص كأنه هشام في حوله وكشفته.

وقد ورد اسم ذلك البيطار متغيراً بعض الشيء في مصادر أخرى ، ففي «العيون والحدائق» اسمه: ابن فيروز[2]. وفي «شذرات الذهب» اسمه: عرون[3].

الغطريف صاحب الطيور

وكان لهشام صاحب ضوار أي مدرب وحوش من طير وغيره. وصاحب الضواري هذا هو الغطريف بن قدامة الغساني الذي أصبح صاحب الضوارى في عهد الوليد بن يزيد بعد وفاة هشام، ثم عاش إلى أن أدرك ملك بنى العباس، وكان حيا أيام الرشيد.

وقد كان الغطريف حاذقاً في أمر الضواري، جامعاً التجربة إلى الاطلاع على مالدى الأمم الأخرى من علم بهذا الفن، وقد اشترك في تأليف كتاب جامع عن «طب الطيور» مخطوط في مكتبة طوب قبو سراي باستنبول، حيث رقم الكتاب هناك (حسب فهرس تلك المكتبة) هو 2016 .A .7399. وقد صوره معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية. ونسخته المصورة موجودة في دار الكتب المصرية برقم ٧٤٨

(١) مروج الذهب ٣/٢٠٩.
(٢) ص ١٠٢.
(٣) ١/١٦٤.

طب. وقد كتب على نسخة طوب قبو سراي أن الكتاب من تأليف الحجاج بن خيثم[1]. ولكن مقدمة الكتاب تبدأ بهذه العبارة: «قال الحجاج بن خيثم استخرجنا من خزانة الرشيد هذا الكتاب، وعرضناه على الغطريف ابن قدامة الغساني صاحب ضواري هشام والوليد، فعرفه. وذكر أن معاذ بن مسلم زاد فيه (في الأصل: زادهم فيه) كلمات لملوك الأكاسرة. وذكر أن ميخائيل بن ليون عظيم الروم لما سمع بولع المهدي بالصيد ولذته، أهدىٰ إليه كتاباً كان لأوائلهم في ضواري الطير. فأمر المهدي بإحضار أدهم بن محروز الباهلي وكان قد سمع منه فيها نوادر العرب — فأمر أن نكتب (في الأصل: نوهب) كتاباً جامعاً لمقالات الحكماء والترك والفلاسفة والروم جربت بعرب (أي قورنت أقوال الترك والروم بتجارب العرب)، فألفنا هذا الكتاب[2].

أي أن الحجاج لم يكن إلا راوياً للكتاب، وأن مؤلفه كان كلا من الغطريف وأدهم بن محروز، وأن معاذ بن أسلم زاد فيه عما قيل في الموضوع عند ملوك الأكاسرة.

وقد ذكر عبد الرحمن الباشا في كتابه «الصيد عند العرب» هذا الكتاب، فقال عنه بعد أن قرأه: «وصاحب كتاب الطيور لايفتأ يقول: قال الغطريف كذا، وقال الغطريف وأدهم كذا، وقالا: — يعنى الغطريف وأدهم — كذا. مما يجعل جل الكتاب رواية عنهما»[3].

وهناك كتاب آخر هو «القانون في البيزرة»[4] مخطوط ورد ذكره في كتاب الباشا[5]. ينقل عن الغطريف وأدهم، ويقول عن الغطريف بأنه كان أستاذاً حاذقاً في معرفة الضواري قيماً بأمرها.

(١) فهرس المخطوطات المصورة — ج ٣ العلوم — القسم الثاني الطب — وضع إبراهيم شبوح.
(٢) المصدر السابق وفهرس مخطوطات طوب قبوسراي.
(٣) ص ٣٦.
(٤) البيزرة هي العناية بالطيور وتطبيقها.
(٥) منه نسختان بدار الكتب المصرية.

وقد كان الغطريف كما أسلفنا مطلعاً على كتب القدماء من أهل الملل الأخرى في هذا المضمار. وقد نقل عنه صاحب «القانون في البيزرة» قوله: «وجدنا في كتاب خاقان ملك الترك كذا ...».

إياس بن معاوية

ولم يكن الغطريف بن قدامة بأبحاثه وإنتاجه في مجال علوم الحيوان هو الشاهد الوحيد والدلالة المنفردة على مدى تطور هذه العلوم وازدهارها خلال ذلك العصر، وإنما نجد عالماً آخر اهتم بالحيوان وتحدث عنه وعن حياته بالتفصيل. وذلك العالم لم يكن عالم حيوان كالغطريف، وإنما كان في الأصل قاضياً.

ذلك القاضي هو أبو واثلة إياس بن معاوية المزني الفقيه الذي تضرب الأمثال بذكائه الخارق، ولا ريب في أن القارىء قد قرأ عن نوادر هذا العبقري في مجال التحقيق الجنائي. وهو الذي يعنيه أبو تمام بقوله :

إقدام عمرو في سماحة حاتم

في حلم أحنف في ذكاء إياس

فمن ذكائه في تتبع آثار الحيوان أنه رأى يوماً ــ وهو يمشي في بهو بواسط ــ آجرة (وهي قطعة الطوب أو الحجر المستعمل في البناء) فقال: «تحت هذه الآجرة دابة». فنزعوا تلك الآجرة، فإذا تحتها حية متطوقة. فسئل عن السبب الذي جعله يستنتج وجود تلك الحية، فقال: «لأني رأيت ما بين الآجرتين ندياً من جميع تلك الرحبة، فعلمت أن تحتها شيئاً يتنفس»[1].

ورأى مرة ديكا ينقر حباً ولا يفرقه كما تفعل الديكة.

(١) الحيوان ٦ /٤٨١.

فقال: «ينبغي أن يكون هرماً، فإن الهرم إذا القي له الحب لن يفرقه ليجتمع الدجاج حوله. والهرم قد فنيت رغبته فيهن، فليس همه إلا نفسه»[1].

والحكايتان السابقتان وغيرهما وردت في كتاب «أخبار إياس بن معاوية»[2] الذي ألفه أبو الحسن علي بن محمد المدائني المتوفي سنة ٢١٥هـ. ولم تصل إلى عصرنا نسخة منه، ولكن الجاحظ في كتابه «الحيوان» والثعالبي في كتابه «ثمار القلوب» نقلا عنه.

وكان إهتمام إياس بالحيوان ليس مجرد ملاحظات عابرة، وإنما كان عن دراسة وتعمق، فجاء بأفكار عن الحيوانات سبقت عصره وصعب تفهمها واستيعابها حتى على معاصريه ومن جاءوا بعده.

وكان اهتمامه بدرس الحيوانات منذ كان صغيراً، فقد كان في صغره ضعيفاً دقيقاً دميماً، وكان له أخ أشد حركة منه وأقوى. فكان معاوية أبوه يقدم ذلك الأخ على إياس. فقال له إياس يوماً: «ياأبت إنك تقدم أخي عليّ، وسأضرب لك مثلي ومثله: هو مثل الفروج حين تنفلق عنه البيض يخرج كاسياً كافياً نفسه يلتقط، ويستخفه الناس. وكلما كبر انتقص، حتى إذا تم فصار دجاجة لم يصلح إلا للذبح.

وأنا مثل فرخ الحمام حين تنفلق عنه البيضة عن ساقط لا يقدر على الحركة، فأبواه يغذوانه حتى يقوى ويثبت ريشه، ثم يحسن بعد ذلك ويطير، فيجد به الناس ويكرمونه، ويرسل من المواضع البعيدة فيجيء، فيصان لذلك ويكرم، ويشترى بالأثمان الغالية»[3].

---

(١) الحيوان ٢ /١٥٢.

(٢) الفهرست ١١٧.

(٣) الحيوان ٢/٢٧٨.

فمثل هذا الكلام الصادر من صبي أو شاب صغير لا يأتي في الغالب إلا إذا كان اطلع على شيء من حكم الأوائل في الكتب.

ومن آرائه التي سبق بها عصره قوله في تهجين السمك (أي توالده من أبوين مختلفين في الفصيلة). وقد عارضه الجاحظ في آرائه تلك وظن أنها خاطئة، ولكن العلم الحديث يقرها ويثبتها.

قال الجاحظ: «فمن الباطل زعمهم أن الشبوط ولد الزجر من البني (الشبوط والزجر والبني من أنواع السمك). وأن الشبوط لايخلق من الشبوط، وأنه كالبغل في تركيبه وإنساله. ورووا ذلك عن إياس بن معاوية بن قرة»[١].

وقد يكون الشبوط يولد من الشبوط، ولكن التهجين معروف اليوم في الأحياء.

ويقول الجاحظ «وقد روى لنا غير واحد من أصحاب الأخبار أن إياس بن معاوية زعم أن الشبوط كالبغل، وأن أمها بنية، وأن أباه زجر، وأن من الدليل على ذلك أن الناس لم يجدوا في بطن شبوطة قط بيضاً.

وأنا أخبرك أني قد وجدته فيها مراراً، ولكنى وجدته أصغر جثة وأبعد من الطيب. ولم أجده عاماً، كما لم أجده في بطون جميع السمك.

فهذا قول أبي واثلة إياس بن معاوية المزني الفقيه القاضي، وصاحب الأزكان[٢]، وأقوف من كرز بن علقمة (أي أشد قيافة وهي تتبع الآثار)، وهو داهية مضر في زمانه، ومفخر من مفاخر العرب.

---

(١) الحيوان ١/١٤٩.

(٢) أي صاحب النباهات والملاحظات الذكية.

فكيف أسكن بعد هذا إلى أخبار البحريين وأحاديث السماكين، وإلى ما في كتاب رجل لعله أن لو وجد هذا المترجم أن يقيمه على المصطبة ويبرأ إلى الناس من كذبه عليه ومن إفساد معانيه بسوء ترجمته»[1].

ويقصد بالعبارة الأخيرة كتاباً لأرسطوطاليس مترجماً في علوم الحيوان، حيث يظن أن الترجمة قد حرفت مقاصده. حيث مر بنا في الفصل الرابع رأي الجاحظ في الترجمة وأن الكتاب المترجم لايعطي معاني الكتاب الأصلي بدقة. وقوله بأنه لا يركن إلى البحريين والسماكين لأنهم عوام يجهلون غير الصيد ولا يصل كلامهم إلى مستوى أهل العلم والتجربة.

وفي موضع آخر يوجه الجاحظ نقداً جارحاً لإياس حين يقول: «ورووا عن أبي واثلة أنه زعم أن من الدليل على أن الشبوط كالبغل أن الناس لم يجدوا في طول ما أكلوا الشبابيط في جوفها بيضاً قط.

فإذا كان هذا الخبر عن هذا الرجل المذكور بشدة العقل المنعوت بثقوب الفراسة ودقة الفطنة صحيحاً، فما أعظم المصيبة علينا فيه.

وما أخلق الخبر أن يكون صحيحاً. وذلك لأنني سمعت له كلاماً كثيراً من تصنيف الحيوان وأقسام الأجناس، يدل على أن الرجل حين أحسن في أشياء وهمه العجب بنفسه ظن أنه لايروم شيئاً فيمتنع عليه»[2].

ومهما بلغت شدة معارضة الجاحظ لإياس فإن العلم الحديث يقر بأن التهجين حالة معروفة في السمك.

---

(١) الحيوان ٦ /١٨.

(٢) الحيوان ١/١٥٠.

وهناك رأى آخر منسوب لإياس رد عليه الجاحظ حيث قال: «ذكروا عن إياس بن معاوية أنه زعم أن الصئبان ذكورة القمل، والقمل إناثها، وأن القمل من الشكل الذي تكون من إناثه أعظم من ذكورته. وذكروا أنه قال: وكذلك الزرارقة والبزاة (وهما نوعان من الطير). فجعل البزاة في الإناث. وليس فيما قال شيء من الصواب والتسديد»[1].

والصئبان هي يرقات القمل أو بيضه.

(١) الحيوان ٥ /٣٦٨.

الفصل التاسع

التقنية والصناعات

كانت الفصول السابقة تتحدث عن أن المسلمين في ذلك العهد بدأوا يتعرفون على العلوم الطبيعية، وأنهم أضافوا إلى ما عندهم من خبرات ورثوها عن العهد الجاهلي إلى التجارب التي عرفتها الأمم الأخرى. فمن الطبيعي بعد ذلك أن يبدأ تطبيق تلك العلوم في مجالات صناعية وعمرانية مختلفة. وهذا الفصل يتحدث عن التطبيقات الصناعية، ويترك الحديث عن التطبيقات العمرانية للفصل القادم.

ولفظة التقنية عربت في عصرنا هذا من لفظة تكنولوجيا الإفرنجية، وتعني «تطبيق العلم». ولهذا اخترناها لتكون عنواناً لهذا الفصل.

خالد بن يزيد

وقد بدأت الكتب المتعلقة بتطبيق العلوم تترجم منذ عهد مبكر خلال العصر الأموي. فملك الصين أهدى إلى معاوية كتاباً من سرائر علومهم كما مر في الفصل الثالث، وورث هذا الكتاب خالد بن يزيد بن معاوية، فكان يستفيد منه في هواياته العلمية.

قال الجاحظ عن خالد: «وكان أول من أعطى التراجمة والفلاسفة وقرب أهل الحكمة ورؤساء أهل كل صناعة. وترجم كتب النجوم والطب والكيمياء، والحروب والآلات والصناعات»[1].

ولذلك برع خالد في تطبيق العلم في بعض مجالات الحياة. فكان يوماً حاضراً في مجلس عبد الملك بن مروان، وتذاكر الحاضرون الماء. فقال خالد: «منه ما يكون من السماء، ومنه ما يستقيه الغيم من البحر فيعذبه

---

(١) فضل هاشم على عبد شمس ٢١٧.

الرعد والبرق. فأما ما يكون من البحر فلا يكون منه نبات. وأما النبات فإنما يكون من ماء السماء».

ثم قال: « إن شئتم أعذبت لكم ماء البحر. فأتى بقلال من ماء، ثم وصف كيف يصنع به حتى يصير عذباً[1].

فنرى من خلال حديث خالد أن القوم كانوا قريبي العهد بالقرآن الكريم فلا يؤولون آيات الكتاب بما يقرأونه في كتب الكافرين، فهو قد قرأ في عدة مواضع من كتاب الله أن الماء ينزل من السماء فتنبت الثمار على الأرض ومن ذلك قوله تعالى (الآية ٢٢ من سورة البقرة): ﴿**الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون**﴾ وقوله تعالى: (الآية ٦٣ من سورة الحج): ﴿**ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير**﴾. وآيات أخرى في عدة مواضع من المصحف المطهر.

وقرأ في الكتب التي ترجمت له أن الماء يتبخر من البحر فيتكون منه الغيوم. وخشية أن يكون بين القولين تعارض ولو لفظي نراه يتحدث عن نوعين من الماء: نوع من السماء، وآخر من ماء البحر. ثم ينسب إنبات الزرع إلى ماء السماء لكي يوافق كلامه ما جاء في القرآن الكريم حرفياً.

ثم أخذ يشرح للحاضرين ما تعلمه من كيفية تحلية الماء المالح بتطبيق مبادىء الكيمياء من تقطير وتبخير مما هو معروف اليوم.

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ٥ /١١٩.

صناعة العطر

ومن الصناعات التي عرفها المسلمون في ذلك العهد العطارة، ومعروف أنها تقوم على تطبيق مبادىء الكيمياء. ومن العطارين الذين وردنا ذكرهم إدريس بن معقل العجلي الذي عاش في زمن هشام بن عبد الملك، وكان يعالج العطر، أي يقوم بتحضيره[1].

ومنهم حيان بن عبد الله الأزدي الكوفي والد جابر بن حيان الكيميائي المعروف[2]. بل إن كتاب «العيون والحدائق في أخبار الحقائق» والطبري في «تاريخ الرسل والملوك» يشيران إلى أنه كان بالبصرة سوق للعطارين في ذلك العهد. حيث ورد ذكر تلك السوق خلال سرد أحداث ثورة يزيد ابن المهلب على الأمويين.

الصيدلة

وكان حيان بن عبد الله المذكور يعمل بالصيدلة إضافة إلى العطارة، حيث كان من أقرباذين الكوفة، ومن المخلصين لبني العباس الذين بدأت دعوتهم في زمانه، فهاجر إلى طوس ليكون من الدعاة السريين لهم، فشعر به عمال الدولة الأموية، فألقي القبض عليه وقتل[2].

وقال ميرهوف عن حيان: «ومارس علوم الطب والحكمة ولكن شيئاً من كتاباته الطبية لم يصلنا . خلا أن كاتب هذا البحث أفلح في العثور على بحث في السموم ينسب إليه»[3].

ولم يذكر ميرهوف أين عثر على ذلك البحث، ولكن قد يفهم من قوله ذاك أنه اقتناه بمكتبته الخاصة.

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري ٣٨٥.

(٢) جابر بن حيان وخلفاؤه ٣٦ الكيمياء في التفكير الإسلامي ٣٠. نبذة عن جابر بن حيان ــ مقالة لفاضل الطائي بمجلة المجمع العلمي العراقي ٤٢/١٤.

(٣) تراث الإسلام ٤٥٢.

وعلى ذكر السموم، فقد مرّت في الفصل السابع رواية تزعم أن الطبيب ابن أثال كان يحضر السموم لمعاوية بن أبي سفيان.

وهناك صيدلاني اسمه سليم صنع دواء أصفر اشتهر ذكره بين الناس لأنه عالج كثيراً من الأمراض. فقد كان سليم وكيل التاجر عبد الله بن أبي بكرة (١٤ ــ ٧٩هـ / ٦٣٥ ــ ٦٩٨م) صيدلانيا بالبصرة. وقد عجن دواء أصفر لكل ما شرب له، فكان يستشفى به كل مبرور ومجرور، فصار مثلا بالبركة وحسن الموقع، وعرف باسم «أصفر سليم»[1]. قال ابن قتيبة: «كان لعبد الله بن أبي بكرة ثلاثة وكلاء، يقال لهم سليم الناصح، وسليم الغاش، وسليم الساحر. وهذا هو الذي عمل أصفر سليم»[2].

الألعاب السحرية

وعرف أهل ذلك العهد شيئاً من الألعاب السحرية، واشتهر بها عبد الله بن هلال الحميري «صديق إبليس وختنه» كما كان يطلق عليه. كان في زمن الحجاج، وكان صاحب ألعاب سحرية يدهش بها الناس، فكان يدعى لهم أنه يعرف تلك الألعاب بسبب أن إبليس يتراءى له ويصادقه ويكاتبه ويطلعه على أسراره. وقد وصل إلى مجالسة الحجاج بسبب شهرته، فقد قال الحجاج يوماً ليحيىٰ بن سعيد بن العاص: أخبرني عبد الله بن هلال صديق إبليس عليه اللعنة أنك تشبه إبليس فقال يحيى: وما ينكر الأمير أن يكون سيد الأنس يشبه سيد الجن؟[3].

وسبب إقرار الحجاج لعبد الله بن هلال بممارسة ألعابه السحرية هو أنه لم يكن يمارس السحر الأسود المحرم في دين الله. قال صاحب

(١) ثمار القلوب للثعالبي ١٥١.
(٢) المعارف ٢٠١.
(٣) ثمار القلوب ٧٣.

«الفهرست»: «عبد الله بن هلال، صالح المديبري، عقبة الأذرعي، أبو خالد الخراساني، هؤلاء يعملون بالطريقة المحمودة، ولهم أفعال جليلة وأعمال نبيلة»[١].

وقد صدق البعض أن ابن هلال له صلة يإبليس، فقال إبراهيم البيهقي بأنه سبط إبليس من قبل أمهاته[٢] (أي أمه جنية وأبوه إنسي!!).

فيظهر من الأقوال السابقة أن ابن هلال كان يمارس الألعاب التي انطوت على خدع علمية.

الفقه الإسلامي والعلـوم

وجاءت الشريعة الإسلامية وأبحاثها بمجال خصب للبحث في تطبيقات العلوم المختلفة، ومنها العلوم الطبيعية. فالحكم على الخمر مثلا يتطلب معرفة الفرق بينه وبين غيره من السوائل. ومعرفة نصاب زكاة المعدن تتطلب معرفة نوعية ذلك المعدن. وهذا ما عرف السلف الصالح البحث فيه.

ومن الأمثلة على ذلك الحكم على العصير المطبوخ أو الدبس أو المربى بلغتنا الدارجة اليوم. روى مالك ابن أنس رضي الله عنه في الموطأ أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه حين قدم الشام شكا إليه أهل الشام وباء الأرض وثقلها. وقالوا: لايصلحنا إلا هذا الشراب (أي خمر العنب). فقال: اشربوا العسل. فقالوا: لايصلحنا العسل. فقال رجل منهم: هل لك أن نجعل لك من هذا الشراب شيئاً لا يسكر؟ قال: نعم فطبخوه حتى ذهب منه الثلثان وبقي الثلث. فأتوا به عمر، فأدخل فيه إصبعه، ثم رفع يده فتبعها الشراب يتمطط (أي تعلق بإصبعه) فقال: هذا الطلاء، هذا

---

(١) الفهرست ٣٧١.

(٢) المحاسن والمساوىء ١/١٦٧.

مثل طلاء الإبل، فأمرهم بشربه. فقال له عبادة بن الصامت: أحللتها والله!! قال: كلا والله! اللهم إني لا أحل لهم شيئاً حرمته عليهم، ولا أحرم عليهم شيئاً أحللته لهم.

الطلاء : في الأصل هو كل ما يطلى به، ثم أطلق على القطران الذي كان يطلى به جرب الإبل. ثم أطلقته العرب على الخمر تحسينا لاسمها، لا لأنها الطلاء بعينها.

وهذا الحكم قال به جمهور العلماء. ومن الصحابة الذين وافقوا أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وأبو موسى الأشعري وأبو الدرداء وعلي وأبو أمامة وخالد بن الوليد رضي الله عنهم. ومن التابعين: سعيد بن المسيب والحسن البصري وعكرمة مولى ابن عباس.

ومن الصحابة والتابعين من رأى جواز شرب الدبس على النصف، أي أن يطبخ الشراب حتى يتبخر نصفه ويبقى نصفه. فمن الصحابة البراء ابن عازب وأبو جحيفة وجرير بن عبد الله وأنس بن مالك. ومن التابعين محمد بن الحنفية وشريح القاضي رضي الله عنهم أجمعين[1].

فمن المعروف اليوم أن الشراب إذا طبخ وسخن لاتستطيع الكائنات الدقيقة العيش فيه، وهي التي تسبب التخمر والتخلل وفساد الأكل. ولهذا لايتخمر الدبس (أو المربى).

هذا عن الدبس المطبوخ من عصير طازج، أما الخمر فلا تحل بطبخ كما قال العلماء، وممن قال بهذا في ذلك العهد سعيد بن المسيب والشعبي والنخعي والحسن البصري[1].

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر العسقلاني. باب الأشربة.

وبحث علماء ذلك العصر عن المعادن والجواهر التي تجب فيها الزكاة. حيث قال ابن عباس عن العنبر: «ليس العنبر بركاز، إنما هو شيء دسره البحر»[1]. والركاز: كنز من دفن الجاهلية إذا وجده مسلم يؤدي خمسه زكاة. والدسر: الدفع، أي أن العنبر ألقاه البحر إلى الساحل فليس عليه زكاة كالركاز.

وقيل بأن المستخرج من البحر كاللؤلؤ والمرجان والعنبر ونحوه ليس عليه زكاة، حيث أفتى بهذا عمر بن عبد العزيز وعطاء بن أبي رباح ومالك بن أنس وسفيان الثوري من فقهاء ذلك العهد[2].

وقال الشافعي عن العنبر: «أخبرني عدد ممن أثق بخبره أنه نبات يخلقه الله في جنبات البحر، وقيل أنه يأكله حوت فيموت فيلقيه البحر، فيؤخذ فيشق بطنه فيخرج (أي العنبر) منه»[3]. ومعروف أن الشافعي عاش في أول العصر العباسي وتتلمذ على أهل العصر الأموى.

التعدين

وعرف العرب التعدين منذ الجاهلية. حيث اشتهر بينهم معدن الذهب الذي كان لبني سليم وسمي بمعدن فاران أو فران. وجاء ذكره في عصور الإسلام الأولى أكثر من مرة. حيث قدم أبو حصين السلمي إلى رسول الله ﷺ بذهب من معدنه[4]. وفي عهد الأمويين نسمع عن عامل (أي وال) للأمويين على ذلك المعدن يدعى كثير بن عبد الله[5]. كان واليا عليه سنة ١٢٨هـ.

---

(١) البخاري في باب مايستخرج من البحر (كتاب الزكاة).

(٢) المغني لابن قدامة ٣/٢٧.

(٣) فتح الباري لابن حجر في باب الزكاة.

(٤) الاستيعاب لابن عبد البر والإصابة ٤ /٤٤ (من مقالة لحمد الجاسر في مجلة «العرب»).

(٥) تاريخ الطبري وابن الأثير حوادث سنة ١٢٨هـ ٢/٩٩ (من مقالة الجاسر).

ومن معادن الفضة عرف معدن الرضراض باليمن، كان أهله من الفرس الذيم سكنوا حوله أيام الجاهلية ثم زادوا في العهد الأموي ثم في العهد العباسي إلى أن خرب سنة ٢٧٠هـ في حروب أهلية[١].

الصناعة الحربية

وكانت الصناعات عموماً مما اهتمت به الدولة في ذلك العهد. وأكثر الصناعات استحواذاً على اهتمام الحكام كان العمران والإنشاءات وهذه سوف نتحدث عنها في الفصل التالي، وأتت الصناعة الحربية في المرتبة الثانية من حيث الاهتمام.

ففي سواحل الشام والاسكندرية والبصرة أقيمت دور لبناء السفن منذ عهد معاوية بن أبي سفيان، وبدأ الحجاج بن يوسف بتطوير تلك الصناعة، فكان أول من أجرى في البحر السفن المقيرة (أي المدهونة بالقار) المبسمرة غير المخرزة، والمدهونة والمسطحة، وغير ذوات الجؤجؤ.[٢]

وفي الحروب استعمل بنو أمية آلات حرب للصيف وأخرى للشتاء، واستعملوا المجانيق والنفط[٣].

النسيج والورق والسكة

وقد عرفت بلاد الإسلام صناعة النسيج في ذلك العصر، وأقدم قطعة نسيج وصلت إلى عصرنا ترجع إلى أيام الوليد بن عبد الملك[٤].

كانت الأواني والثياب والستور والورق مما يصنع بمصر. وكانت تنقش عليها عبارة مسيحية هي: «**أب وابن وروح قدس**». فلما اطلع عليها عبد الملك بن مروان قال: «ما أغلظ هذا في أمر الدين والإسلام أن

(١) الجوهرتين للهمداني (اطبع في إبسالة بالسويد سنة ١٩٦٨م).

(٢) الحيوان ١/٨٢.

(٣) العيون والحدائق ٢٤.

(٤) النسيج الإسلامي سعاذ ماهر ٢٥.

يكون طراز القراطيس، وهي تحمل في الأواني والثياب، وهما مما يعملان بمصر وغير ذلك مما يطرز من ستور وغيرها من عمل هذا البلد على سعته وكثرة ماله وأهله، تخرج منه هذه القراطيس فتدور في الآفاق والبلاد وقد طرزت بشرك مثبت عليها».

فأمر بالكتابة إلى أخيه عبد العزيز والي مصر بإبطال ذلك الطراز على ما كان يطرز به من ثوب وقرطاس وستر وغير ذلك، وأن يأخذ صناع القراطيس بتطريزها بعبارة إسلامية هي: «**شهد الله أنه لا إله إلا هو**»[1].

وقد ظلت هذه العبارة الإسلامية ثابتة على منتوجات الورق إلى زمان إبراهيم بن يوسف محمد البيهقي صاحب «المحاسن والمساوي».

وقد غضب ملك الروم الذي كانت بلاده تستعمل الورق المصنوع من بلاد الإسلام من تغيير العبارة المسيحية إلى عبارة إسلامية. وكانت النقود المستعملة في بلاد الإسلام تسكّ في بلاد الروم، فأرسل إلى عبدالملك يهدده بأن ينقش على الدنانير شتماً للنبي ﷺ إن لم يغير قراره بشأن الورق، فاستشار عبد الملك خالد بن يزيد في ذلك، فأشار عليه بأن يسكّ نقوداً إسلامية يستغني بها عن نقود الروم. ففعل ذلك[2]

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري والمحاسن والمساوىء للبيهقي.

(٢) المصدران السابقان.



الفصل العاشر

الهندسة والعمران



بعد أن رأينا كيف طبقت| العلوم التطبيقية في مجالات مختلفةسردناها في الفصل السابق نأتي إلى تطبيقات أخرى لتلك العلوم في مجال العمران وحيث أن تطبيق العلوم والرياضيات في العمران يسمى الهندسة تمييزاً له عن التطبيقات الأخرى (في ذلك الزمان)، فلذا ترانا أفردنا فصلاً خاصاً بهذه الهندسة.

ونحن هنا بصدد الحديث عن تأثيرات المهندسين الأجانب على هندسة ذلك العصر، وإبداع نفس المسلمين من عرب وموالي في هذا المجال، وتطبيق العلوم في الهندسة، وتاريخ الهندسة كعلم. وأما الحديث عن كيفية إنشاء تلك المباني وزخرفتها وكم عدد البنايات التي اكتشفت في عصرنا وتفاصيل النقوش والطراز في البناء فهو حديث يخص علماء الآثار والباحثين في تاريخ العمارة كفن من الفنون الجميلة الإبداعية. وقد ألفت عن عمائر ذلك العصر كتب ودونت مجلدات عدة.

بنايات ذلك العصر

بدأت العناية بالعمارة منذ بدأت دولة الإسلام، حيث الحاجة إلى بناء مساجد، ثم بناء معسكرات ومدن جديدة يقيم فيها الفاتحون من الكوفة والبصرة والفسطاط. وقد بدأ طراز البناء بسيطاً في البداية على عهد الخلفاء الراشدين، ولما جاء العهد الأموي وانتقل الحكم إلى ملك يهتم بالتأنق بدأ طراز جديد اقتبس فيه البناة طرز البناء التي وجدوها.

ونظراً لأن عاصمة الدولة كانت دمشق فقد بدأ العمران من هناك، فقام المهندسون السوريون بإنشاء طراز معماري أخذ من الفن البيزنطي

الذي كان سائداً بالشام، وأضيف إليه ما تقتضيه تعاليم الإسلام من نبذ للصور والتماثيل وخاصة في المساجد (ولو أن التماثيل وجدت في آثار القصور التي كانت لحكام بنى أمية)[1].

ولكن التأثير البيزنطي لم يكن الوحيد، حيث لم يخل الطراز الأموي من التأثر بالأساليب الساسانية التي كانت سائدة بفارس[2].

ولم تكن المباني هي كل أنواع المجالات التي استخدمت فيها الهندسة، حيث سنرى فيما سيأتي من هذا الفصل كيف شقت الترع وبنيت السدود ورسمت خرائط المدن، وغير ذلك من تطبيقات الهندسة المختلفة.

وكان المعماريون الذين يشيدون المباني وينفذون المشاريع الهندسية من أهل البلاد المفتوحة. فعمل عمال من القبط في مسجد الرسول ﷺ بالمدينة المنورة على عهد الوليد، وصناع الشام اشتغلوا في عمائر الشام[3]. واشتغل عمال من فارس في بناء الكعبة[4].

وقد مر بنا في الفصل الثالث أن مساعدة فنية وصلت من دولة الروم إلى الوليد، فاستعان بها في بناء مسجد الرسول ﷺ. ولكن هذا لايعنى أن الدولة الأموية كانت تعتمد كلياً على مثل تلك المساعدة. بل ولا كان الروم يرغبون في مساعدة أعدائهم المسلمين كما تقدم ذكره في ذلك الفصل. وإنما قامت المشاريع الهندسية في الدولة الإسلامية بأيدي أبناء

---

(١) الكتب التي تحدثت عن آثار قصور الأمويين. منها تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمن. عن قصير عمرة (ص١٠٤ ومابعدها من الترجمة العربية).

(٢) تاريخ العمارة — توفيق حمد عبد الجواد ٢٤٤/١.

(٣) الكامل في التاريخ ج ٤ وأحسن التقاسيم للمقدسي ٧٣ وفتوح البلدان للبلاذري، معجم البلدان ج ٧ عن مسجد الرسول (ﷺ).

(٤) الأغاني في ترجمة مسجح المغني.

البلاد أنفسهم. وحتى الفسيفساء والأعمدة الرخامية التي كانت تصنع في بلاد الروم لم يكن الأباطرة يرسلونها إلى بنى أمية الذين كانوافي جهاد دائم ضدهم، وإنما كانت تجلب من بلادهم كغنائم من غنائم الغزو، أو تستخرج من الدور المتهدمة.

قال ابن العديم رواية عن أحد مجاهدي الفاتحين من أهل الشام في العصر الأموي: «كنا معشر أهل الشام، وإخواننا من أهل مصر، وإخواننا من أهل العراق نغزو. فيفرض على الرجل منا أن يحمل من أرض الروم قفيزاً بالصغير فسيفساء، وذراعاً في ذراع من رخام. فيحمله أهل العراق إلى العراق، وأهل حلب إلى حلب. ويستأجر على حملوا إلى دمشق. ويحمل أهل دمشق ومن وراءهم إلى دمشق»[1].

وعندما عزم سليمان بن عبد الملك على بناء مسجد الرملة أراد أن يتقل أعمدة كنيسة جورجس إليه[2]. فطلب بطريك المسيحيين منه أن يعطيه مهلة قبل أن يبدأ في هدم تلك الكنيسة، وكتب إلى ملك الروم يستشيره في حيلة يتخلص بها من هدم الكنيسة. فرد عليه الامبراطور بأن «دُلّه على مغارة بالقرب من الداروم (وهي قلعة بسيناء) فإن فيها باقي العمد التي بنيت منها الكنيسة، فدله، فاستخرج سليمان تلك العمد، وبنى مسجد الرملة، وبقيت كنيسة جورجس[3].

ومن المساجد التي عمرت في ذلك العصر: المسجد الأموي بدمشق، بناه الوليد بن عبد الملك، والمسجد الأقصى بناه عبد الملك أبوه. وتمت توسعة المسجد الحرام بمكة المكرمة في عهد الوليد وعبد الملك أبيه

(١) تاريخ حلب لابن العديم.

(٢) وهو عمل ينافي تعاليم الشرع الإسلامي.

(٣) الوزراء والكتاب للجهشياري ص ٤٧.

وعبدالله بن الزبير رضي الله عنهما. كما تمت توسعة المسجد النبوي في عهد الوليد.

كما أن مساجد أخرى بنيت في كل البلاد، ففي عهد الوليد بن عبد الملك أعيد بناء مسجد الفسطاط القديم المعروف بجامع عمرو. وكان المهندس الذي أشرف على البناء يدعى يحيى بن حنظلة[1].

وبنيت قصور لبني أمية في الصحراء. وقد اكتشف عدد منها في عصرنا.

مشاريع هندسية أخرى

وعندما عرفت الهندسة في ذلك العصر، عرفت كذلك تطبيقات في مجال تعمير المدن وإصلاح الأنهار. وقد انتبه العرب الفاتحون إلى هذه الشؤون منذ عهد مبكر. فالمعاهدة التي وقعها الفاتح عياض بن غنم رضي الله عنه مع أهل الرها في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه تنص على ما يلي: «هذا كتاب من عياض بن غنم ومن معه من المسلمين، لأهل الرها. إني أمنتهم على دمائهم وأموالهم وذراريهم ونسائهم ومدينتهم وطواحينهم، إذا أدوا الحق الذي عليهم. ولنا عليهم **أن يصلحوا جسورنا** ويهدوا ضالنا، شهد الله وملائكته والمسلمون»[2].

وبعد أن استقر الحال بالمسلمين في تلك البلاد صاروا يبنون المنشآت العمرانية بأنفسهم. ففي عهد معاوية بن أبي سفيان تولى مولاه عبد الله ابن دراج خراج العراق، فزاد في مساحة الأرض المزروعة بأن «قطع القصب، وغلب الماء بالمسنيات»[3] أي أزال نبات القصب، وأحل محله المزروعات المفيدة، وتغلب على فيضانات المياه بالسدود.

---

(١) شذرات الذهب ١/١١١ و«الفكر العربي» لأوليري ٩٤.

(٢) فتوح البلدان ٢٠٧.

(٣) فتوح البلدان ٣٥٨.

وقد وجدت كتابة على سد بالقرب من الطائف تقول: «هذا السد لعبد الله معاوية أمير المؤمنين، بناه عبد الله بن صخر بإذن الله لسنة ثمان وخمسين»[1].

فالسد إذن بني في أواخر عهد معاوية سنة ٥٨هـ.

وفي عهد يزيد بن معاوية حفر نهر يزيد الذي أمر هو بشقه كما تقول الرواية. وكان من قبله مجرى صغيراً للماء من عهد الأنباط، فلما تولى يزيد الحكم نظر إلى الأرض المحيطة بذلك النهر، وليس بها ماء كاف. وتأمل في النهر الصغير فرأى الحاجة إلى توسعة ذلك المجرى، فأمر بالحفر لتوسعته، ونسب بذلك النهر إليه. قال ابن عساكر: «وكان (أي يزيد) مهندساً (!) فنظر إلى النهر فإذا هو صغير، فأمر بحفره»[2].

وفي عهد عبد الملك بن مروان بنيت منائر على طريق المسافرين تدل على عدد الأميال. وقد وصلتنا آثار تلك المنائر، وهي كتابات عليها اسمه بدون تاريخ[3].

وفي عهد عبد الملك كذلك كان أخوه عبد العزيز والي مصر. فاتخذ بحلوان مقياساً صغيراً لقياس منسوب النيل. ثم اتخذ أسامة بن زيد التنوخي والي مصر في عهد سليمان بن عبد الملك مقياساً بالجزيرة (وهي المكان المعروف في القاهرة اليوم). وظل ذلك المقياس هو المعول عليه في قياس منسوب النيل إلى أيام المسعودي سنة ٣٣٢هـ. وكان الناس قبل مقياس الجزيرة يستعملون مقياساً بني بمنف، ولكن ذلك المقياس ترك

(١) دراسات في تاريخ الطب العربي ـــ صلاح الدين المنجد ١٠١.

(٢) تاريخ دمشق ـــ لابن عساكر ٢/١٤٩.

(٣) دراسات في تاريخ الخط العربي للمنجد ١٠٦.

استعماله بعد بناء مقياس الجزيرة.[1].

وقد حفظ لنا التاريخ بعض القراءات التي سجلها مقياس الجزيرة في عهد عمر بن عبد العزيز[1].

وقال توفيق عبد الجواد: «مقياس النيل بالروضة/القاهرة بناه أسامة ابن يزيد الملقب بالتنوخي عام ٩٧هـ»[2].

والصواب هو ما ذكره المسعودي من أنه بني في الجزيرة، وذلك لأن المسعودي رأى المقياس أو عاش قريباً منه بمصر. أما توفيق عبدالجواد فيبدو أنه اقتبس من مصدر آخر لم يذكره، حيث يحدد بناء المقياس بسنة ٩٧هـ، وهو مالم يرد عند المسعودي. وأما كون أسامة بن زيد ملقباً بالتنوخي فهو سهو من المؤلف. إذ أن التنوخي ليس لقباً، بل هو نسبة إلى قبيلة معروفة في ذلك الزمان.

ومن الأبنية التي وصلتنا آثارها بركة من عهد يزيد بن عبد الملك، كتب عليها: «بسم الله الرحمن الرحيم. أمر ببنيان هذه البركة عبد الله يزيد أمير المؤمنين، أصلحه الله وحفظه، ومد له في العسر واليسر، وأتم عليه نعمته وكرامته في الدنيا والآخرة. بنيت على يد عبد الله بن سليم». وكتب بخط صغير يتخلل سطور العبارة السابقة: [خمسة عشر ومائة][3].

وبركة أخرى بنيت في عهد هشام كتب عليها: «أمر بصنعة هذه البركة عبدالله هشام أمير المؤمنين أصلحه الله على يد عمار»[4].

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ١/٣٨٠.

(٢) تاريخ العمارة ١/٢٣٢.

(٣) دراسات في تاريخ الخط العربي ١١١.

(٤) المصدر السابق ص ١١٢.

وشهد العراق إصلاحات هندسية عظيمة على يد حسان النبطي مولى بني ضبة، وهو صاحب حوض حسان بالبصرة. وإليه نسبت منارة حسان بالبطائح.

فقد استخرج خلال ولاية الحجاج في عهد الوليد بن عبد الملك وخلال ولاية خالد بن عبد الله القسري في عهد هشام أراضي مغمورة بمياه الفيضان، وفتح أترعة وأقنية ليحول مجرى الماء عن تلك الأراضي[1].

ولابد أنه لقي تشجيعاً من الحجاج وخالد القسري في أعماله الطموحة تلك. فكلا الواليين المذكورين كانا من نوابغ عصرهما. فالحجاج أشهر من أن نعرف به وبنبوغه، وقد ورد ذكره في كتابنا هذا عدة مرات. وخالد القسري أوردنا في الفصل الثالث خطبة تدل على مدى الثقافة العميقة التي كانت عنده.

وقد أنجز خالد هذا عدة مشاريع هندسية خلال ولايته فمنها أنه قام بإصلاح قنطرة الكوفة التي بناها قبله عمر بن هبيرة الفزاري الوالي السابق له. فأصلحها واستوثق منها[2].

ومنها أنه كتب إلى هشام يستأذنه في عمل قنطرة على دجلة، فكتب إليه هشام: «لو كان هذا ممكنا لسبق إليه الفرس!»، فراجعه خالد في شأنها، فكتب هشام يقول: «إن كنت متيقنا أنها تتم فاعملها». قيل: فعملها وأعظم النفقة عليها، فلم يلبث لسوء حظه أن قطعها الماء فأغرمه هشام ما كان أنفق عليها[3].

---

(١) البلدان لليعقوبي ٣٨٧/٢ وفتوح البلدان ٣٥٩.

(٢) فتوح البلدان ٣٥١.

(٣) فتوح البلدان ٣٥٦.

استعمال الخرائط

فهذا الذي رأيناه فيما سبق يعطينا نبذة عن المشاريع الهندسية في ذلك الزمان، حيث الوعي بفوائد الهندسة والإلمام بأساليبها كان معروفاً عند رجالات ذلك العصر. فبالإضافة إلى ما سبق من قيام حكام بني أمية وولاتهم بتلك الإنشاءات الهندسية الكبيرة نجد أن الهندسة طبقت حتى في حالة الحرب.

فالحجاج عندما كتب إليه قائده قتيبة بن مسلم الباهلي عن صعوبة فتح مدينة بخاري، أرسل إليه يقول: «صورها لي»، أي ارسم لي خارطة تبين مواقعها وتضاريسها. فلما بعث إليه المطلوب درسه الحجاج وكتب إليه بالخطة السليمة لاقتحام المدينة[1].

أسماء المهندسين

وليس الوعي بمشاريع الهندسة وأهميتها وتطبيقاتها عند الولاة والحكام إلا نتيجة لأن النوابغ من الشعب مارسوا عمل الهندسة. فقد مر بنا ذكر يحيى ابن حنظلة الذي أشرف على بناء مسجد بمصر، ومن الكتابات المنقوشة التي وجدها أهل الآثار نقرأ أسماء الذين قاموا بتشييد الأعمال الهندسية مثل عبدالله بن صخر الذي بنىٰ سداً سنة ٥٨هـ وعبد الله بن سليم الذي بنىٰ بركة يزيد ابن عبد الملك وعمار الذي بنىٰ بركة هشام، وحسان النبطي الذي أصلح الأراضي الزراعية بالعراق.

أخبار ضعيفة

وإضافة إلى المذكورين نجد بعض الكتب تصف بعض الرجال من أهل العصر الأموى بأنهم كانوا مهندسين. ومن هؤلاء يزيد بن معاوية الذي سبق قول ابن عساكر فيه بأنه كان مهندساً ومنهم المغنّي عمر الوادي الذي قال عنه كلٍ من الأصفهاني وياقوت بأنه كان مهندساً، ولم يزد أي واحد منهما شيئاً يدل على ديفيه اشتغاله بالهندسة، وإنما أورد كلاهما أنه كان مغنياً في أيام الوليد بن يزيد[2].

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٤/٥٣٥.
(٢) الأغاني ٣/٨٣ معجم البلدان ٨ /٣٧٦.

الفصل الحادي عشر

أثر العهد الأموي على العهد العباسي

بشار بن برد (٧٦هـ ٦٩٥م ــ ١٦٨هـ ٧٨٤م)، شاعر من الذين أدركوا عهد الدولتين الأموية والعباسية. وذاع أمره عند خلفائهما، وأخذ سنيّ الجوائز منهم، ولكنه في آخر حياته نسبت إليه آراء في المنطق والفلسفة لا تتفق مع دين الإسلام، ومنها أنه قال بأن النار عنصر أكرم من التراب (حيث كان القدماء يقولون بأن عناصر العالم أربعة النار والتراب والهواء والماء). وهو نفس قول إبليس عليه اللعنة حين قال لرب العالمين: ﴿**خلقتني من نار وخلقته من طين**﴾[١]، فرد عليه شاعر يدعى صفوان الأنصاري يقول[٢]:

شعر صفوان الأنصاري وسليمان الأعمى

زَعَمْتَ بأَنَّ النَّارَ أَكْرَمُ عُنْصُراً
وَفِي الأَرْضِ تَحْيَا بالحِجَارَةِ والزَّنْدِ[٣]
وَيُخْلَقُ فِي أَرْحَامِها وأُرُومِهَا
أعاجِيبُ لا تُحْصَى بخطٍّ وَلا عَقْدِ[٤]
وَفِي الْقَعْرِ مِنْ لُجِّ الْبِحارِ مَنافِعٌ
مِنَ اللؤْلُؤ المَكْنونِ وَالْعَنْبَرِ الْوَرْدِ
كَذلِكَ سِرُّ الأَرْضِ فِي الْبَحْرِ كُلُّهُ
وَفِي الْغَيْضَةِ الْغَنَّاء والجَبَلِ الصَّلْدِ

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٢.

(٢) البيان والتبيين ١/٢٥ــ٣٢ طبعة هارون ١/٣٨ــ٤٢ طبعة السندوبي، والحواشي التالية من وضع حسن السندوبي محقق وشارح الكتاب.

(٣) الزند: العود الذي تقدح به النار.

(٤) الأروم: أصول الغابات.

وَلابُدَّ مِنْ أَرْضٍ لِكُلِّ مُطَيِّرٍ
وَكُلِّ سَبُوحٍ في الغمائر مِنْ جَدِّ[1]

كَذاكَ وما يَنْسَاخُ في الأَرْضِ مَاشِياً
عَلى بَطْنِهِ مَشْيَ المُجَانِبِ لِلْقَصْدِ

وَيَسْرِي عَلَى جِلْدٍ يُقيمُ حُزُوزَهُ
تَعَمُّجَ ماء السيلِ في صَبَبٍ حَردِ[2]

وَفِي قُلَلِ الأَجْبالِ خَلْفَ مُقَطَّمٍ
زَبَرْجَدُ أَمْلاكِ الْوَرَى ساعَةَ الحَشْدِ

وَفِي الْحَرَّةِ الرَّجْلاءِ تَلْقَى مَعَادِنَا
لَهُنَّ مَغَارَاتٌ تَبَجَّسُ بالنقْدِ[3]

مِنَ الذَّهَبِ الإِبْرِيْزِ وَالفِضَّةِ التَّي
تَرُوقُ وتُصْبِي ذَا الْقَنَاعَةِ والزُّهْدِ

وَكُلِّ فلزٍّ مِن نُحَاسٍ وَآنُكٍ
وَمِنْ زِئْبَقٍ حَيٍّ وَنَو شَادِرٍ يَسْدِى[4]

وَفِيهَا زَرَانِيخٌ وَمَكْرٌ وَمَرْتَكٌ
وَمِن مَرْ قَشِيشا غَيْرِ كابٍ ولامُكْدِى[5]

وفِيْها ضُرُوبُ الْقَارِ وَالشَّبِّ وَ النهَى
وَأَصْنافُ كِبْرِيْتٍ مُطَاوِلَةِ الْوَقْدِ[6]

---

(١) كان في الأصل: لكل مطهر، وقد وقفت على رواية تقول: لكل مطير، فآثرتها لاستقامة المعنى عليها واطراد النسق بها. الغمائر: المياه يعلو بعضها بعضا. من جد، وفي رواية: من خد.

(٢) تمعج وتعمج: تلوى. حرد: غير مستقيم في انحداره.

(٣) الحرة الرجلاء: الأرض الخشنة ذات الحجارة السود البركانية. تبجس بالنقد: تتفجر بمعدني النقد وهما الذهب والفضة.

(٤) الفلز: نحاس أبيض تجعل منه القدور، وقد يطلق على جواهر الأرض كلها. الآنك: الأسرب.

(٥) المكر: طين أحمر يصبغ به أو هو المغرة، المرتك: الحجر المحرق. ويروى: وفيها روانيخ وشب ومرتب ومزمرقشا، وهذا خطأ وتحريف.

(٦) القار: الزفت، النهى، الزجاج، ويروى: وفيها ضروب القار والزفت والمها. والمها جمع مهاة، والمهاة: البلور.

تَرى الْعِرْقَ مِنْهَا في المَقَاطِعِ لائحاً
كَما قَدَّتِ الْحَسْناءُ حاشِيَةَ الْبُرْدِ[1]
ومِنْ إثْمِدٍ جَوْنٍ وَكِلْسٍ وَفِضَّةٍ
وَمِنْ تُوتِيَاءَ فِي مَعادِنِه هِنْـدِى[2]
وَفِي كلِّ أَغْوَارِ الْبِلادِ مَعادِنٌ
وَفي ظاهِرِ الْبَيْدَاءِ مِنْ مُسْتَوَى نَجْدِ
وَكُلُّ يَوَاقيْتِ الأنَامِ وَحَلْيِهَا
مِنَ الأَرْضِ وَالأحْجارِ فاخِرَةِ المَجْدِ
وَفِيْهَا مَقَامُ الخِلِّ والرُّكْنُ وَالصَّفَا
وَمُسْتَلَمُ الحِجَّاجِ مِنْ جَنَّةِ الخُلْدِ
وَفي صَخْرَةِ الخِضْرِ التي عِنْدَ حُوتِها
وَفِي الْحَجَرِ المُهْمِى لِموسَى عَلَى عَمْدِ[3]
وَفِي الصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ تَصْدَعُ آيَةٌ
لِأُمِّ فَصيْلٍ ذِى رُغاءٍ وَذِى وَجْدِ[4]

فإذا تأملنا في هذه الأبيات نرى عجباً: شاعر في آخر عهد الدولة الأموية يتحدث عن الكيمياء كأنه كيميائي، ويعدد أسماء المعادِن واحداً بعد آخر بحيث سرد اسم سبع عشرة مادة كيميائية مألوفة لديه في عدد بسيط من الأبيات.

وقد زاد شاعر آخر على بشار حول نفس الموضوع. والشاعر هو

---

(١) العرق: أي عروق المعادن في الأرض.

(٢) الأثمد الجون: الكحل الأسود، والكلس : الجير واخلاطه. وتروى: ومن امثد جوز. ومن نونيا في معاربها، وكل هذا خطأ وتحريف.

(٣) الحجر المهمى: الصخرة التي ضربها موسى بعصاة فهمت أي تفجرت بالماء.

(٤) تصدع آية: أي الصخرة التي خرجت منها ناقة ثمود يتبعها فصيلها في رغاء وحنين.

سليمان الأعمى، وهو أخو مسلم بن الوليد الانصاري الشاعر، حيث قال[1]:

وتربة الأرض إن جيدت وإن قمطت
فحملها أبداً في إثـــر منفـــوس
ويـــطنها بفلـــز الأرض ذو خبر
بكـل جوهـرة في الأرض مرمـــوس

ومعنى البيت الثاني : أن في باطن الأرض حيث الصخور التي لم تتعرض للتعرية جواهر دفينة. والفلز هو الحالة النقية في المعدن بعد إزالة الشوائب عنه.

فكيف ياترى انتشرت هذه الثقافة الكيميائية عند أولئك القوم إذا لم يكن العصر الأموي قد حفل بحركة ترجمة ودراسة للعلوم الطبيعية عظيمة بحيث نستطيع أم نتصور أم ما مر بنا في الفصول السابقة لم يكن سوى مؤشر يدل عليها وليس وصفاً لها؟.

الخلفاء الأمويون والعلوم الدخيلة

وقد رأينا في الفصول السابقة أن الخلفاء الأمويين كانوا أنفسهم من الذين شجعوا على حركة الترجمة. فسبقوا بذلك الرشيد والمأمون العباسيين. فمعاوية بن أبي سفيان ترجمت له كتب في سير الأمم السابقة؛ وخالد بن يزيد حفيده ترجمت له كتب في مختلف المعارف، وترجم ماسرجيس كتاب أهرن قبل عهد عمر بن عبدالعزيز الذي قام بنشره حين تولى الخلافة، وترجم لهشام بن عبدالملك أكثر من كتاب في أكثر من علم.

---

(١) المصدر السابق.

فكان نمو العلوم الطبيعية في ذلك العهد مستمراً، بحيث كان يمكن أن يؤدي ذلك إلى الاهتمام الرسمي من قبل الدولة كما حصل في العهد العباسي لولا الفتن الداخلية والفساد الذي استشرى في جسم الدولة. فلما جاءت الدولة العباسية كان الجو قد تهيأ لدى المثقفين للاهتمام بتلك العلوم، وأكمل أولئك المثقفون مشوار العلوم برعاية الخلفاء العباسيين الذين أدركوا أهميتها منذ كانوا أفراداً من الشعب في العهد الأموي.

تلاميذ العصر الأموي

فكانت الحركة العلمية في العصر العباسي امتداداً للعصر الأموي. فالحكم بن أبي الحكم من أطباء العصر العباسي، وكان أبوه من أهل العصر الأموي. وابنه عيسى بن الحكم أيضاً من أطباء العصر العباسي[١]. فهذه واحدة من الأسر التي توراثت صناعة الطب في ذلك الزمان، فنقلت معارف العصر الأموي إلى العصر العباسي.

ومن الأسر التي تناقلت صناعة الطب من العصر الأموي إلى العصر العباسي أسرة بني أبجر، وهم من بني فراس من كنانة، وكانوا أطباء بالكوفة[٢]. وقد رأينا في الفصل السابع أن واحداً منهم، وهو عبد الملك بن أبجر، كان من أصحاب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه. وفي العصر العباسي ورد اسم عبد الملك بن سعيد بن أبجر المحدث الطبيب الذي توفي بعد سفيان الثوري المتوفي سنة ١٦١هـ ٧٧٨م.

ومن الذين تتلمذوا على أهل العصر الأموي جابر بن حيان الكيميائي المعروف، وقد مرت بنا أسماء شيوخه في الفصل السادس وبعد جابر انتشرت الكيمياء عند المسلمين، فكان من تلاميذه أبو بكر محمد بن

(١) عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة ١٧٥.

(٢) المعارف لابن قتيبة.

زكريا الرازي الطبيب المشهور الذي ألف عدة رسائل في الكيمياء[1].

ومن علماء العصر العباسي الذين كان للحركة العلمية في العصر الأموي تأثير عليهم أبو نصر محمد بن طرخان الفارابي الحكيم المعروف، فقد مر بنا في الفصل الثاني أن مدرسة الاسكندرية انتقلت في عهد عمر بن عبد العزيز (حوالي سنة ١٠٠هـ ٧١٨م) إلى انطاكية. وبقي التعليم في انطاكية زماناً طويلاً (حوالي ١٤٠ سنة) إلى أن ضعفت تلك المدرسة، ولم يبق فيها سوى معلم واحد تتلمذ عليه رجلان وخرج ذلك الرجلان من انطاكية وقد أخذا معهما الكتب التي كانت بمدرستها[2]. واستقر أحدهما بمدينة حران، وسكن الآخر مدينة مرو. وذلك في عهد المتوكل العباسي[3]. أي حوالي سنة ٢٤٠هـ.

فأما الذي كان من أهل مرو فتعلم منه رجلان أحدهما إبراهيم المروزي والآخر يوحنا بن حيلان. وسار كل منهما إلى بغداد.

وتعلم من الحراني اسرائيل الأسقف وقويري، حيث سار كل منهما إلى بغداد كذلك. فانصرف إسرائيل إلى الرهبنة، وانشغل بديانته. وأخذ قويري يعلم أهل بغداد الفلسفة والمنطق.

وأما يوحنا بن حيلان فقد درّس فترة ثم انشغل بدينه، وأقام إبراهيم المروزي ببغداد يدّرس، فتعلم منه متى بن يونان.

---

(١) الفهرست ٤٢١، ٤٢٣. ومما يدل على تطور أبحاث الكيمياء في زمن الرازي أن معاصره الفيلسوف الكندي ألف رسالة يكذب فيها من يقول بتحول المعادن إلى ذهب فألف الرازي رسالة يرد بها على الكندي ويخطئه فيها.

(٢) ابن أبي أصيبعة ٦٠٤، ٦٠٥.

(٣) التنبيه والاشراف للمسعودي ص ١٢٢ طبعة أوربا.

وتعلم أبو نصر الفارابي من يوحنا بن حيلان ببغداد في أيام المقتدر، وكان متى بن يونان من الفلاسفة المعاصرين له. وكان أسن من أبي نصر، وأبو نصر أحدّ ذهنا وأعذب كلاماً، وقد توفي متى في خلافة الراضي ما بين ٣٢٣و٣٢٩هـ، أما الفارابي فقد توفي سنة ٣٣٩هـ عند سيف الدولة الحمداني بحلب[١].

فنرى مما سبق أن الحركة العلمية في العصر العباسي ما كانت إلا امتداداً للعصر الأموي، بحيث تدفقت المعارف على الناس في ذلك الزمان، وصار الشعراء يستشهدون بأسماء المعادن الكيميائية، حيث مر بنا في الفصل الرابع أن ابن مناذر الشاعر المتوفي سنة ١٩٨هـ ذكر ماسرجيس في شعره.

انتشار التكنولوجيا في بدايات العصر العباسي

وما أتى عهد المأمون ــ الذي ظن البعض أن الترجمة إلى العربية بدأت فيه ــ حتى صارت تطبيقات العلوم الطبيعية أمراً محسوساً في حياة الناس، حيث انتشرت الكتب المختلفة في الزراعة والعطارة والصباغة والميكانيكة وغيرها. وصار الناس يستعملون الآلات المعقدة من ساعات واصطرلاب وموازين دقيقة، وانتشرت الصناعات المتنوعة مثل صناعة الزجاج والآلات الحربية والصيدلة والهندسة.

وكل هذا الذي ذكرته ورد في نص صريح للجاحظ الذي عاش في عهد المأمون، حيث قال في معرض حديث له عن حسنات العلوم الطبيعية[٢].

---

(١) ابن أبي أصيبعة ٦٠٤، ٦٠٥.

(٢) الحيوان ١ /٨١ تحقيق عبد السلام هارون.

«وحسبك ما في أيدي الناس من كتب الحساب والطب والمنطق والهندسة ومعرفة اللحون والفلاحة والتجارة وأبواب الأصباغ والعطر والأطعمة والآلات. وهم أتوكم بالحكمة وبالمنفعة التي في الحمامات وفي الاصطرلابات والقرسطونات[1] وآلات معرفة الساعات وصنعة الزجاج والفسيفساء والاسرنج[2] والزنجفور[3] واللازورد[4] والأشربة والأنبجات[5] والأيارجات[6] ولكم المينا والنشادر والشبة[7] وتعليق الحيطان والأساطين، ورد ما مال منها إلى التقويم ولهم صب الزردج واستخراج النشاستج[8] وتعليق الخيش وإتخاذ الجمازات وعمل الحراقات [9] واستخراج شراب الداذي[10] وعمل الدبابات»[11].

---

(١) يظن المحقق أنه ضرب من الموازين، وأنه ميزان القباني المعروف.

(٢) أسرب (أي رصاص) يحرق، ويشب عليه النار حتى يحمر بالأكسدة PbO.

(٣) كبريتيد الزئبق HgS ويستعمل دهانا.

(٤) حجر فيه عيون براقة يتخذ منها خرز.

(٥) فسره المحقق على أنه تمر هندي يخلط بمواد.

(٦) معجون مسهل، أي مزيل للإمساك.

(٧) النحاس الأصفر.

(٨) اختصاره النشا وهو النشا المعروف.

(٩) سفن فيها مرامي نيران يرمي بها العدو (وتستعمل اليوم محلها لفظة بارجة الأجنبية).

(١٠) شراب من النوع المحرم. ولعله كان يستعمل دواء في زمان الجاحظ فذكره لذلك.

(١١) الدبابة آلة تدفع في أصل الحصن ويكون في جوفها رجال ينقبون الحصن لاقتحامه

الملحق الأول

التنجيم في العصر الجاهلي



في محاولة لإقناع القاريء والمستمع لمحاضراته بأن الذين اشتغلوا بالفلك في العصر الأموى لم يكونوا يهتمون إلا بالتنجيم، زعم المستشرق نلّنو في كتابه «علم الفلك عند العرب»[1] أن العصر الجاهليّ لم يعرف إلا التنجيم وأن الناس في ذلك الزمان بسبب ولعهم بالعجائب اتجهوا لدراسة التنجيم. حيث قال: «فأول ما اشتغلت به أهل البلاد الإسلامية من العلوم هي العلوم العملية، وخصوصاً الطب والكيمياء وأحكام النجوم لا علم الهيئة الحقيقي. لأن الناس من سليقتهم متولعون بالحكايات العجيبة، ومعرفة الحوادث المستقبلة، وكشف ما يظنونه سراً مكتوماً».

وقد استند في آرائه تلك على قلة ما ورد عن التنجيم في الشعر الجاهلي. وكأن الشعر الجاهلي سجل كل شيء عن الحياة في ذلك العصر. فإذا عرفنا أن الشعر الجاهلي لم يتطرق كثيراً إلى عمل الكهان، وجدنا السبب لقلة ما ورد عن التنجيم فيه، حيث التنجيم كان من عمل الكهان.

ثم زعم أن التنجيم عرفه العرب بعد اتصالهم بالأمم الأخرى في الدولة الأموية وهذه مغالطة واضحة، حيث عرف العرب الاتصال بالأمم الأخرى منذ قرون قبل ظهور الإسلام، كما هو معروف عند كل من اشتغلوا بتاريخ العرب الجاهليين، ونلّنو واحد من أولئك الذين اشتغلوا بذلك التاريخ.

(١) أعد ذلك الكتاب في الأساس كمحاضرات ألقاها في أول افتتاح الجامعة المصرية. ثم جمعها في ذلك الكتاب.

فالتنجيم عرف عند العرب الجاهليين من قديم. قال النووي في «شرح صحيح مسلم» بأن الكهانة عند العرب ثلاثة أضرب، والثالث منها «المنجمون، وهذا الضرب يخلق الله في بعض الناس قوة، ولكن الكذب فيه أغلب».

وقال جرجي زيدان: «ومن هذا القبيل اعتقادهم (أي الجاهليين) تأثير النجوم في أعمال البشر، على ما كان عند الكلدان»[١].

وقال جواد علي: «وقد كان الجاهليون مثل غيرهم من الشعوب يلجأون إلى المتفرسين في دراسة الأجرام السماوية لمعرفة الأمور الخفية عليهم من حاضر ومستقبل، وذلك بالاستدلال عليها من ظواهر الكواكب والنجوم. إلى الكهان، وهم المتخصصون بهذه المعرفة عند الجاهليين.

فكانوا يتنبأون لهم بما سيقع من أمور وأحداث بالاستدلال بحركات تلك الأجرام، وربما تجمع عندهم من فراسات وتجارب ورثوها في هذا الشأن وقد كان الجاهليون يبالغون في ذلك كثيراً، ويؤمنون بالتنجيم، وبتأثير الطالع في حياة الإنسان، ولهذا ذم الإسلام المنجمين وكذّبهم، ومنع المسلمين من التصديق بهم»[٢].

وقد صدر حديثاً كتاب يبحث في الأشعار التي قالها عرب الجاهلية وصدر الإسلام عن النجوم وهو بعنوان «النجوم في الشعر العربي القديم حتى أواخر العصر الأموي» تأليف يحيى عبد الأمير شامي، ونشر دار الآفاق الجديدة ببيروت.

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ٢٠٢/١.

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٤٣٤/٨.

وأصدق الأدلة على معرفة الجاهليين بالتنجيم هو أحاديث الرسول ﷺ.

فقد وردت أحاديث كثيرة لتحذير الناس من التصديق بشعوذة المنجمين. قال ﷺ: «من اقتبس باباً من علم النجوم لغير ما ذكر الله، فقد اقتبس شعبه من السحر. المنجم كاهن، والكاهن ساحر، والساحر كافر» أخرجه رزين بن معاوية.

وفي رواية: «من أقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد» أي كلما زاد في دراسة التنجيم كسب إثم السحر أكثر. أخرجه أبو داود وابن حنبل وابن ماجه[1].

وصلى الرسول ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في إثر مطر هطل بالليل. فلما فرغ من صلاته أقبل على الناس فقال: «**هل تدرون ماذا قال ربكم؟**». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر. فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب. وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب**» أخرجه البخاري ومسلم ومالك وأبو داود.

وكان نفر من الصحابة جلوساً مع الرسول ﷺ، إذ لمع شهاب في السماء. فقال لهم رسول الله ﷺ: «**ما كنتم تقولون في الجاهلية إذا رمي بهذا؟**» قالوا : الله ورسوله أعلم، كنا نقول ولد الليلة رجل عظيم ومات رجل عظيم. فقال: «**فإنها لا يرمي بها لا لموت أحد ولا حياته**» إلى آخر الحديث (أخرجه مسلم والترمذي).

---

(١) وقد صححه شيخ الحديث المعاصر محمد ناصر الدين الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (الحديث رقم ٧٩٣).

فإن لم يكن هناك تنجيم في العصر الجاهليّ، فمم كان الرسول ﷺ يحذر، ولم كان يحرم التنجيم!.

وتجاهل نلّنو لكل هذه الأحاديث شيء مستغرب. ولكن الاستغراب يزول إذا عرفنا أن هناك سببين لهذا التجاهل:

١ ـ أولهما أنه يعتبر التنجيم علماً، ويسميه «علم أحكام النجوم». فهو لا يريد أن يصطدم بقرائه والمستمعين إلى محاضراته من المسلمين بمعارضته لأقوال النبي ﷺ.

٢ ـ والثاني هو أن نلّنو معروف بكتاباته ضد الإسلام. فهذه الآراء الغريبة التي سردها، وتجاهله للأحاديث النبوية، ليست سوى جزء بسيط من كتاباته الكثيرة التي يستهدف بها النيل من دين الإسلام. ﴿**والله متم نوره ولو كره الكافرون**﴾.

الملحق الثاني

كتاب الرّاهب



تأليف : جابر بن حيان

نشره بول كراوس Paul Kraus على حسب المخطوط الوحيد المحفوظ بدار الكتب الوطنية في باريس تحت رقم ٥٠٩٩ الصفحات ١٦٣ إلى ١٦٤.

توزيع العبارات على الأسطر من عمل مؤلف هذا الكتاب.

اعلم ياأخى أنني خصصت كتابي هذا باسم الراهب. لأن من شأني (أن)[١] أنسب كل علم إلى صاحبه، إذا[٢] كان مخصوصاً به.

ولولا أن علومي وعلوم سيدي عليه السلام[٣] ممتزجة غير متميزة لما كانت كتبي هذه المنسوبة إليه جارية على غير الحكاية عنه. ولكنني صرت بما أودعني من العلم مشتقاً منه كالابن من الأب، مضافاً إليه كالنصف من الضعف. وأمثال هذه لم يكن فرق بين ما أورده من علمي، وما أخذته عنه وسمعته منه، إذ كان الكل واحداً في المعنى. ولأنه كان يكرر المعنى بألفاظ كثيرة، ويورده عليّ بالوجوه المختلفة، ويخرجه فيّ من الحلي المتباينة. فلا يبقي لأحد فيه اختصاص ولا تمييز، إلا في أشياء تقل وتخرج إلى حد النادر الشاذ لأغراض له فيها نحو ما حكيته فيما يختص به من كتاب «الضمير» الستمائة باب، وغيره من كتبي «كالإمامة» وغيره.

(١) مابين القوسين إضافة من المحقق كراوس.

(٢) في الأصل : إذ كان.

(٣) يقصد الإمام جعفر بن محمد بن علي بن الحسن المعروف بالصادق كما مر في الفصل السادس.

ولما كان هذا الراهب مختصاً بهذا الوجه من التدبير، ولم أسمعه من غيره على هذه الصفة قبله، حتى لقد شككت شكا خفت أن يخرجني إلى التهمة لسيدي. فلما عدت إليه وسألته عن هذا الباب كيف لم يذكره في جملة ما أودعنيه من العلم قال لي: «ياجابر، ويحك! كيف خفي عليك إيداعي في هذا الباب؟ وقد وصفته[1] أنت في عدة وجوه». فقلت له: «ما أذكر ياسيدي» فأشار إلى الكتب فقال: «أولها كتاب التجميع، وثانيها أحد التدابير المتحد[2] بنفسه».

فعدت إلى كتبي، فتأملت وأعدت نظري في هذين الكتابين، فوجدت الأمر على ما قال، فعلمت أنه لم يخرج من علمه شيء في المعنى، وإن ظن من ليس هو في مثل منزلته أن علمه غير محيط بكل شيء.

غير أني رأيت أن أضع هذا التدبير بألفاظ هذا الرجل، وعلى طريقة هذا الكتاب، لتكون كتبي هذه تامة في الوجوه كلها، فلا يجد الطاعن إليها مساغاً. وأين بالطاعن فيها مساغ، بل من لي فيمن يقهر يسيراً مما أودعته[3] فيها من العلوم اللاهوتية، ولكني إنما أريد بالطاعن النقيض[4] فاعلم ذلك.

واعلم أن هذا الراهب كان قد بلغني أمره زماناً بعد صحبتي لأستاذي **حربي** قدس الله روحه. فكنت مشتاقاً إل رؤيته. وذلك أنه بلغني عنه أنه أخذ العلم عن **مريانس** الذي كان **خالد بن يزيد**[5] أنفذ

---

(١) في الأصل : وضعته.

(٢) في الأصل : تدابير المتحدة.

(٣) في الأصل : أودعه.

(٤) في الأصل : النقص.

(٥) في الأصل : خالد بن اليزيد.

في طلبه ووضع عليه العيون والأرصاد، حتى أخذه من طريق بيت المقدس. وكان يهدي إليه في كل سنة ذهباً كثيراً. وأنه لما مات خلفه هذا الراهب.

فلما مضى أستاذي حربي كانت نفسي متشوقة إلى هذا الراهب. وقيل لي إنه ببعض بوادي الشام، فخرجت في طلبه، إلى أن ظفرت به، وأخذت منه هذه السياقة للحجر، وهي طريفة، وقد كان كثير العلم غزيره، غير أني ما استغربت من علمه شيئاً غير هذا التدبير، فلذلك اقتصرت عليه من علمه،وأودعته في هذا الكتاب ــ وحق سيدى[1] ــ على وجهه من غير تغيير له، بعد أن عملته[2] بيدي فصح، وذلك أني سألته بالله عند التقائي به عن كونه في البريّة، وقدرته على المقام. وتمكنه من العمل، مع تعذر الآلات عنده لبعده عن العمارة وعدمه لما يجرب العقاقير به[3] والآلة.

قال لي : إن الخميرة التي معي تغنيني عن ممارسة العمل، ولو رمت ممارسته لأمكنني ذلك بمكاني هذا.

فقلت : فبأي تدبير، وبأي آلة؟

فضحك وقال : في أقرب الطرق، وبأسهل الآلات.

فقلت : أفدني ذلك لأشاركك في علمه وأحكيه عنك. فإني وإن كنت عنيت بهذا العلم، فما أستغني عنه الأستاذ في[4] وجوهه.

فقال لي : بطريقة هرمس المثلث[5] بالحكمة.

---

(١) نثبت هذه العبارة للأمانة التاريخية ونبرأ إلى الله مما فيها من شرك.

(٢) في الأصل : علمته.

(٣) في الأصل : للعقاقير فيه.

(٤) في الأصل : من.

(٥) في الأصل : المثلثة.

فقلت له : أي طريقة، فقد عرفت أكثرها.

قال : بطريقته إلى ابنه طاط[1] في كتابه.

قلت : ما أثق بهذا القول حتى أرى التدبير، فإني أستبعد أن يكون هذا الأمر على وجه التدبير لا على وجه الميزان بغير تصعيد ولا تقطير ولا تصدئة ولا تعفين.

فقال لي : هلم بنا لأريك إياه.

وعدل بي إلى مغارة من بعض المغائر التي يأوي إليها، وأخرج من وسطها[2] قطعة منقار، فحفر بها شبيها بنقرة الروباس، إلا أنها أعمق وأذهب في قعر الأرض، وجعل بينهما في الحجر مجرى[3] طويلا. ثم أخذ قطعة طين من تربة المكان، فبله ومده، وجعله كمدخنة البخور. وتركه يجف، فلما جف طبقه على النقير الذي نقره[4]، وهندمه عليه بالسكين حتى انطبق على الحفرة والمجرى جميعاً. وأخذ الحجر عبيطاً، فخلطه بأخلاطه، وعجنه بشيء من الزيت الذي (كان)[5] يشعله ويستضيء به في ليله، حتى صار كالكرة الصغيرة في ذلك[6] النقير. وكب عليه الطين المعمول على مقداره (جمع)[7]. وجمع حطباً وطرحه من فوقه، وأضرم فيه النار. فلما اشتعلت فيه تركها وخرج إلى باب المغارة وخرجت.

(١) في الأصل : بابا، وقد اعتمد كراوس اسم طاط اعتماداً على ماجاء في «الفهرست» من أسماء أولاد هرمس فيما يبدو لي.

(٢) في الأصل : وسطه.

(٣) في الأصل : حجراً.

(٤) في الأصل : النقبين الذي نقبه.

(٥) مابين القوسين إضافة من المحقق.

(٦) في الأصل : تلك.

(٧) الكلمة بين القوسين لعلها زائدة.

فجلسنا نتحدث، وأنا أستطرف تدبيره وأتعجب منه، ولا أدري ماذا يريد أن يخرج منه. غير أني أعلم أن الزيت سيحرق تلك العقاقير والأدوية إذا حميت النار عليه، فلا تصلح حينئذ إلا للتصعيد لتخرج أرواحها، فتصبغ البرانيات فقط.

فلما كان بعد ساعتين من النهار قال: أدخل لننظر ما كان من حجرنا في تدبيرنا ذلك. فدخلنا وقد طفئت النار وخمدت. فكنس الرماد[1] عنه ببعض الحشيش، ونظف المكان، ثم رفع الطين عن رأسه، فإذا هو محرق كما كنت أعلمه.

وفيه بريق الأرواح المتهيئة للتصعيد، فما شككت في فساده. فرفعه، ورمى به مع الرماد، فعجبت منه. فلما نظف موضعه ومكانه عدل إلى المجرى الذي كان حفره، فإذا هي شبيهة بالبلوطة تزهو وتبرق بريقاً شديداً. فأخذها وهي غير طاهرة لما عليها[2] من وضر الدهن ووسخه وسواده. ثم أخرج زيبقاً فسكبه في ذلك المكان، وطرح عليه جزءاً يسيراً من النار كالنار[3] المذيبة للشمع[3]. فلما حمي سمعت له تنفضاً عظيماً خفت أن يطير منه الزيبق إلى وجوهنا. فتباعدت من قربه، فكشف عن الموضع، فإذا الزيبق قد صار نقرة حمراء ملتهبة أحسن من كل ما رأيت.

فقال لي : هكذا تدبيري ياجابر. ففدت منه بهذه الفائدة، وعلمت أنها أفضل علمه، وما نقصتك منها ــ وحق سيدي ــ شيئاً. فاعلم ذلك، واعمل به صواباً إن شاء الله تعالى.

---

(١) في الأصل : النار.

(٢) في الأصل : عليه.

(٣) في الأصل : نار كنار المذيبة الشمع.

وإذ قد بلغنا إلى آخر تدبير هذا الراهب، فلنقطع الكتاب، ولنأخذ فيما يليه إن شاء الله. وبالله توفيقنا وعصمتنا، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

تم كتاب الراهب بحمد الله وعونه وحسن توفيقه.

الملحق الثالث

ديوان خالد بن يزيد

وما جرى له مع مرياس




ديوان خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان

وما جرا بينه وبين الراهب مريانس من الأسئلة العجيبة

وذلك لما أرسل خالد غلامه غالب وراه إلى

هذا كتاب ديوان خالد بن يزيد بن معاوية

بن أبي سفيان وما جرى بينه وبين الراهب مريانس

الراهب من الأسئلة العجيبة والغرائب

صورة غلاف المخطوط المحفوظ بخزانة الكتب الظاهرية بدمشق

كتاب ديوان خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وما جرى[١] بينه وبين الراهب مريانس من الأسئلة[٢] العجيبة، وذلك لما أرسل خالد غلامه غالب وراءه[٣] إلى جبال بيت المقدس وأحضره بين يديه وجعل يسأله.

هذا كتاب ديوان خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان وما جرى بينه وبين الراهب مريانس[الراهب][٤] من الأسئلة العجيبة والغرائب.

ياطالب القوت من خل إلى الأبد
خذ ما وصفت[٥] وثق بالواحد الأحد

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

رب يسر وأعن

هذا ديوان خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان رحمهم الله تعالى، وجميع ما جرى بينه وبين مريانس الراهب الرومي من الأسئلة[٦] لما أحضره غالب غلام خالد من جبال بيت المقدس.

---

(١) في الأصل : جرا.
(٢) في الأصل : الأسيلة.
(٣) في الأصل : وراه.
(٤) لعلها كلمة زائدة فأقترح حذفها.
(٥) في الأصل : أصفه، حيث ينكسر وزن البيت إذا لم نستعمل كلمة «وصفت» بدلاً من «أصف».
(٦) في الأصل : الأسولة.

الحمد لله نحمده بحمده وبتوفيقه نعبده، الذي من علينا بالعلم، وخصنا بالعقل والفهم، وجعلنا من ذرية آدم، وفضلنا على كل العالم. وصلى الله وسلم على هادي الأمة ومفتاح الرحمة وأشرف العالم محمد ابن عبد الله عبده وصفيه ورسوله ونبيه ووليه وخاصته من البشر وخيرته من جميع البرية، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وبعد، فإني لم أزل بحمد الله مذسمت همتي وعلقت مهجتي بالفهم أطلب الصنعة، لعلمي بما فيها من الكرامة والرفعة. إذ هي أشرف الصناعات كلها، وأخفها مؤنة، وأكثرها معونة، وأقلها تعباً، وأكثرها نشبا، وأهناها منالا، وأوسعها أحوالا، وأجملها للمنفعة، وأبعدها للمضرة، وأمتعها مكرمة، وأعظمها موهبة، وأصونها للنفس، وأذهبها للبخس، وأحلها مأكلا، وأخفها محملا.

كل الناس متعب، مكدود متشغب، إلا صاحب هذه الصناعة الرفيعة، والمختص بنيل هذه المنزلة الرفيعة. زرعه في بيته، وتجارته في يده، رزقه[1] كثير، وربحه غزير. لايخشى على زرعه فساداً، ولا على تجارته بواراً، لا تقهره الأشراف، ولا يهدمه الإعناف. ليس غناه في مكان دون مكان، ولا أوان دون أوان. لا يسلبه سالب، ولا ينهبه ناهب. للمعروف طلّاب، وللأموال وهّاب، ومن الفقر آمن، وإلى الغنى راكن. قلبه من الغموم صفر، وبدنه من التعب قفر، كفي ذل المكاسب، وتعب المطالب. وجهه مصون، لايبذل ولا يهون. حاز ملكاً لا يخاف زواله، ولا يخشي انتقاله، لازماً له عمره، مقيماً معه دهره. فعيشه هني، وحاله رضي، وقلبه غني، وباله رضي. فمن ذا في الفخار يدانيه، وفي ميدان الفضل يجاريه هيهات هيهات، لقد حاز من الدرج أعلاها، ومن المراتب أسناها فلا يباريه إلا عديله، ولا يناوئه إلا مثيله.

(١) في الأصل: رفقه.

فأي صناعة أولى بالطلب والبحث عليها من صناعة تمنع من الهموم والتعب، والشغل وذل المكتسب، والمخاطرات في المطلب، وبذل الوجه والاستصغار، والدناءة والاستحقار بل كيف يبلغ مادح مديح صنعة ظاهرها لعب الصبيان، وباطنها حكمة الرحمن. بذرها بيتي حقير في العين، وحصادها ذهب ولجين. قصيرة المدة، كثيرة التمكن في كل بلدة. وتدور معه أينما دار، وتغل له ما شاء من عقار.. جميع المخلوقات بين يديه، وجملة النعمات تنهال عليه. أكرم بها من صنعة وأشرف بها من عدة. وهي رياشى الدنيا وآخر المنى. يقصر الوصف عنها، ولا يحيط بشيء منها.

فلذلك انجذبت نفسى إليها، وعولت بكليتي عليها، فعكفت على درس كتب الفلاسفة، وقرأت الأوضاع السالفة. وطالعت الكثير من تأليفهم، ووعيت الأعداد من رسائلهم.

ومن جملة ما ملت إليه وأشرفت عليه ديوان الأمير خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، والسبب في وصوله إلى هذا العلم، وما جرى بينه وبين مريانس. وهو ما نسخته من كتاب غالب مولى خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وكان خادمه وأمينه وثقته على نفسه وقيامه في أهله. وكذلك كان مع خالد يفوض أمره إليه، وائتمانه عليه، وما ورد عليه من مريانس.

قال غالب : كان من سبب خالد ومريانس الرومي السائح في جبال بيت المقدس أن خالداً خرج ذات يوم متنزها إلى دير مران بدمشق. وكان مغرماً بالصنعة كلفا بها، لا يؤثر شيئاً عليها. وكان لايفتر عن السؤال عن أمرها والبحث فيها، وعمن يرجو أن يجد عنده علماً منها ومعرفة بها.

فأتاه رجل وطلب الإذن عليه فأدخل عليه، فسلم الرجل سلاماً بليغاً. وقال الرجل بعد سلامه: «إني رجل من بيت المقدس. وقد أتيت إليك بنصيحة ما فاز أحد بمثلها». فقال له خالد: «وما نصيحتك؟» قال: «بلغني أنك تطلب الصنعة، فأتيت لأخبرك عن رجل رومي في جبال بيت المقدس أنا عارف بمكانه. يهدي كل سنة إلى بيت المقدس من الذهب شيئاً كثيراً».

فقال له خالد: «لئن كنت صادقاً فيما قلت لأعطينك ما تقصر عنه أمنيتك وأنعم عليك. وإن كنت كاذباً فيما تقول لأنزلن بك من البلاء مالا طاقة لك به».

قال له الرجل: «حسبك، قد أنصفتني من نفسك»
ففرح خالد بذلك، وأعجبه ما سمع منه، وأمر له بجائزة حسنة وكسوة، ووعده بخير جسيم.

قال غالب : فوجهني معه وجماعة من الموالي، فسرنا في فيافي وقفار ترفعنا أرض، وتضعنا أخرى. فلبثنا أياما في طلب الشيخ السائح، ثم ظفرنا به. فإذا هو شيخ كبير ضعيف طويل، حسن الصورة، بهي المنظر، عليه جبة مسح من شعر كأنه جلد شاة بالية. ففرحنا به، ورفقنابه، وداريناه حتى قدمنا به على خالد، وأدخلنا عليه.

ففرح به فرحاً شديداً، ما رأيته فرح بمثله قط. ثم التفت إليّ يسائلني عن مسيرنا في البداية والعودة، فأخبرناه بأمرنا جميعه.

ثم أقبل على الشيخ فسأله عن اسمه ومنشئه، فقال: «اسمي مريانس الرومي».

فقال له خالد : «كم لك منذ سحت في هذا الجبال؟».
قال له: «بعد موت هرقل الملك بأربع سنين».

قال له: «يامريانس، اجلس» ورفع مجلسه، وأعجب[1] من سمته وأدبه. ثم قال له: «يامريانس، لو كنت في كنيسة أو دير كان أرفق».

فقال: «أصلح الله الأمير، الخيرة إلى الله عز وجل، بيده يفعل ما يشاء قد صدق الأمير، الراحة في ذلك أكثر، والتعب في السياحة أشد وأصعب، وإنما يحصد المرء ما زرع، وأرجوا أن تكون الخيرة فيما أنا فيه، برحمته ومنه إن شاء الله. لأنه لايدرك الإنسان الراحة إلا أن يكدنفسه».

قال خالد: «صدق لو كان هذا الكلام من صدر مؤمن». ثم قال: «يامريانس، إنه بلغني عنك فضل في دينك، فأحببت أن أراك، فأرسلت إليك».

فقال له: «ما أنا بعجب. وما أنا إلا من أولاد آدم، وإن كانت الأيام والليالي غيرتني، فلربما كنت حسن الصورة في شبيبتي وفي الناس مثلي كثير، والموت من وراءنا يأتي، وهو أشد من بلاء الجسد وأفظع، والله المستعان».

قال خالد: «اللهم أعنا عليه، فإنه داهية على كبر سنه».
قال غالب : ثم أمرني أن أذهب به إلى منزل في ناحية القصر قد كان أعده لنا، وآتيه[2] برجل من مشايخ النصاري القدماء يوانسه ويحادثه ويسكن إليه، ففعلت ذلك.

---

(١) في الأصل : وأعجبه.
(٢) في الأصل : وأتيته.

وكان خالد يأتيه في كل يوم مرتين، ويجلس إلى جانبه ويحادثه ويوانسه، ولا يسأله عن شيء من الأشياء. فلما طال ذلك اطمأن إليه مريانس، وخالد في ذلك يسأله عن الزمان والأمم الماضين وسير الملوك والقرون السالفين وأحاديث اليونانيين، وهو بعجائب القوم وأمورهم وطرائف لم يسمع خالد بمثلها منذ خلق، فوقع حديثه من خالد موقعاً عظيماً لم يقع عند أحد بموقعه قط قبل ذلك.

فلما كان ذات يوم قال له خالد: يامريانس! إني طلبت علم الصنعة لأعلمها، وبحثت عن خبرها وأمرها واستقصيت عنها، فلم أجد من يخبرني عنها، وأنا أسألك أن تسبب لي أمرها وعلاجها، ولك مني ما تحب، مع عودتك إلى موضعك الذي كنت فيه، ولا بأس عليك مني.

قال له مريانس: قد علمت، أصلحك الله، أنك لم ترسل إليّ إلا لحاجة منك إلي ! فأما قولك: لابأس عليك مني، فقد بلغت من السن مبلغاً ليس لمثلي أن يخاف من أحد إلا من الله جلت قدرته. وقد أوليتني ما أنت أهله، ورأيت من شفقتك وإحسانك ورأفتك مالا ينبغي لمثلي أن يكتمك شيئاً مما تطلب، مع بعد همتك وحسن اختيارك، وطلبك بأهون مسعى وأخف مؤنة، والله المحمود.

فتبسم خالد عند ذلك، ثم قال: من لا ينفعه الرفق يضره الخرق، والعجلة من الشيطان الرجيم، وأنا ابن معاوية. **ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم**.

قال مريانس: انصت للحكم معرفة وفهما تعلمها. وتفكر في أصول الأشياء تدرك فروعها. إن هذا الأمر الذي طلبت ليس يقدر عليه أحد إلا بتؤدة، ولايظفر به العنف، ولا يوصل إليه من عالم إلا بالتؤدة والرفق

والحب والصادق. فأول ذلك رزق، يسوقه الله إلى من يشاء من خلقه بالقدرة الغالبة، يتسبب له تعلم ذلك، ويكشف له عن مستوره، وإنما هو موهبة من الله تعالى يعلمه من أحب من خلقه الذليلين الخاضعين له.

قال خالد: أجل، لا حيلة إلا بتوفيق الله تعالى!.

ثم قال: اجلس ياغالب، واكتب ما يدور بيني وبينه من السؤال والجواب، وتيقظ له، وكن محترزاً، وإياك أن تسقط شيئاً.

قال مريانس: إن الله عز وجل خلق العباد ضعفاء من ضعفة، لا يؤخرون ما قدم ولا يقدمون ما أخر، ولا يعلمون إلا ما علمهم، فلا يدركون إلا ما أعطاهم، ولا يتناوله إلا عيشهم، وما جعل لهم، ولا يملكون لأنفسهم موتاً ولا حياة ولا نشوراً. وجعل من اختص من خلقه يطلبون علم هذه الصنعة التي يخرج صاحبها من ذل الدنيا ونصبها وتوصله إلى ملك الآخرة، فلم يزالوا يتوارثونه ذلك واحداً بعد الآخر.

ثم درس العلم (أي انقرض)، ودرس أهله، وعدم المعلمون. وكان مما خبرته ووجدته في الكتب الباقية الصادقة ــ أعني كتب الأوائل ــ التي كتبت لمن بعدها ممن كان قبلها، وورثوا من أعقابهم من أراد الله سبحانه أن يعلمهم هذه الصنعة على النحو الذي وضعوا وفسروا، بلا كذب ولا باطل. وإن كانوا سموا الأشياء بغير أسمائها، ووضعوها بالرمز، فإنهم لا محالة قد فسروها وأوضحوها، وجلوا عنها بالصنعة. وحاولوا دفع السفهاء عنها، وضع الظلمة منها، بعقول زاكية وأقوال صادقة فشبهوا وعرضوا وأشاروا لأهل العقل والفهم، وأوضحوا وفهموا وبينوا، وإن كانوا قد خالفوا وقدموا المؤخر وأخروا المقدم. وعلى العاقل طلب العلم، لا يقصر عن الطلب، وأن يكون الله جل ذكره رجاءه ورغبته في إلهامه وتعلمه من أسدّ

أموره كلها. فإن الله يرزقه الفكرة النافعة والتدبير الحسن وتأليف الحكمة، والتأليف من غير تحريف ولا زيغ عن الصواب!.

قال خالد: قد قلت يامريانس وأحسنت، ووعظت فأبلغت، ونصحت فأديت. وليس يبعد عني ذلك، إذ كان مثلك في علمه ونسبته وأدبه ومعرفته يتبين عن صدق ضميره. وقد أحببت أن ذلك بشرح ما سألتك عنه، وإيضاحه لي إيضاحاً بينا أستغني به عن شغل الفكر فيه.

فهذا المطلوب: من شيء واحد أم من أشياء؟

قال مريانس: إني أوضح الحق، وما بينته تبيينا، وما صححته النية وتراضت عليه الشهادة. وأذكر ما سألتني عنه من هذه المسألة وغيرها، وآتي على ذلك بشهادات. حتى إذا نظرت فيه صدقت ما قلت لك في كتبهم. أما ما سألت عنه: من أصل واحد هو أم من أشياء شتى؟ فإن ذلك من شيء واحد وأصل واحد وجوهر واحد منه وبه، ولا يدخل عليه داخل ولا غريب، ولا ينقص منه شيء.

وقد قال في ذلك هرقل الملك لبعض تلاميذه، إذ سأله هذه المسألة. قال: أما في البداية فإنها من أصل واحد، وأما في الآخرة فإنها تتفرق ثم تكون أيضاً واحداً.

واعلم أنه لا بد لك من أخذ الهواء. قال اسطفانس الحكيم: إن هذه الأربع طبائع هي: مزاوجة الحرارة والبرودة، واليبوسة والرطوبة بعضاً ببعض بعمل. وإن هذه الأخلاط منها أصول، ومنها فروع محدثة. فأما الأصل فالماء والنار، وأما المحدث فالأرض والهواء.

وقال اسطفانس أيضاً لمارية: إن لمائنا الفضل على أرضنا، بصفائه

والأرض مثل ثقل الماء. وجدنا في كتب آبائنا الأولين خزائن أن كل ذي فوق من صفو ما تحته خلق.

قال جرجس الراهب: كما أن الطبيعة السماوية ظهرت من الطبيعة الأرضية السفلى البشرية[1]، كذلك الطبيعة العليا الكريمة المبذوله خلقت من الطبيعة السفلية. ومن هذه الطبيعة تكون الصنعة لا من غيرها. فالطبيعة العليا ألطف جوهراً وأتم تماماً من الطبيعة السفلى. واعلم أن ما في السماء هو المؤثر لما في الأرض.

قال هرمز : إن الأرض هي أم الطبائع. منها ولدت وإليها تعود.
قال غيره : إن كل شيء من الأرض يخرج، وإلى الأرض يعود.

قال فيثاغورث: كما أن الأشياء كلها إنما كانت واتحدت من الواحد، كذلك هذه الصنعة إنما هي شيء واحد. وكما أن في بدن الإنسان الطبائع الأربع خلقها الله تعالى ذكره، وجعلها مفروقة منفصلة، ومنفصلة مجتمعة، ومتفرقة يجمعها بدن واحد، وكل واحد منهن يعمل عملا غير صاحبه، له قوة ولون وسلطان على حدة، كذلك هذا الشيء. وفي هذا شهادات الحكماء إذا نظرت فيها كثيرة.

قال خالد : لقد أخبرتني بعجب، ما صح قط في عقلي، ولا تبينته حتى قلته لي. فكيف إذا كان كما تقول هو شيء واحد وجوهر واحد وأرض واحدة كثرت أسماؤه؟.

قال مريانس: يقول هرقل لبعض تلاميذه: إن النواة من النخلة أيضاً،

---

(١) السماء في عرف القدماء كانت الجو حيث اعتبر الهواء والسحب والنيازك من السماء وعرف علم الجو والمناخ بعلم الآثار العلوية.

ومن النواة تكون الشجرة، ويخرج من أصلها فروع كثيرة. وتزهر بدون عدد.

وكذلك قال هرمس المثلث : انظروا إلى الأحمر التام والأحمر الناقص من حمرته، والأصفر التام والأصفر الناقص من صفرته، والأسود التام والأسود الناقص من سواده، وذلك من أصل واحد. والسنبلة من الحبة، والحبة من السنبلة، والأغصان الكثيرة من الشجرة، والشجرة من النواة.

وقال الراهب أيضاً: انظر إلى الثوب أيضاً. بدنه وكمه وتخاريصه قميصاً وصنعة، من خيوطه لامن غيره. وصنعتنا فهي من شيء واحد مستور مخزون أُضفي عن الجهال رمزاً، وألفته الحكماء وألفها. وبألف اسم سمي، وبكل مكان يكون، وهو مكتوم ظاهر تعرفه الحكماء وتكرمه، وتستخف به السفهاء وتحقره وتجهله. وهذه أسماء كثيرة قد أتت بها الحكماء في مصاحفها. وذكرت منها النطفة وتغيرها حتى تصير دماً، ثم مضغة ثم تتخلق من بعد ذلك خلقاً حتى تصير إنساناً تاماً[1].ومنها النخلة

(١) علق بعض الأفاضل على هذه العبارة بقوله: «إن النطفة وتغيرها حتى تصير دماً ثم مضغة ثم يتخلق منها الإنسان هي مما نص عليه القرآن الكريم في عدة مواضع. فلعل هذا الراهب غير المسلم يقصد القرآن بقوله (الحكماء)!!».

ولكن الدكتور محمد علي البار، الطبيب والكاتب الإسلامي المعروف وصاحب كتاب «خلق الإنسان بين الطب والقرآن»، كان له رأي آخر. حيث أفادني جزاه الله خيراً بأن الإنسانية عرفت قبل الإسلام شيئاً عن مراحل تكوّن الجنين في بطن أمه. فقد أشتغل بعض أطباء اليونان وفلاسفتهم بالبحث عن الأجنة، ومنهم أرسطو (٣٨٤ ــ ٣٢٢ ق.م). وعرف أحبار اليهود ورهبان النصارى حقائق لم يعرفها الأطباء عن الجنين، وذلك عن طريق الوحي الذي نزل على موسى عليه السلام وعلى انبياء بني إسرائيل. اهـ كلام البار باختصار، ويراجع كتابه المذكور لمزيد من التفصيل.

ومما يجدر ذكره أن جالينوس الطبيب وعالم التشريح المعروف (١٢٩ ــ ١٩٩م) ألّف كتاباً خاصاً عن مراحل نمو الجنين. وهنا قد يقول القائل: ألم يأت القرآن الكريم إذن بأي جديد؟ والجواب: بل أتى بأشياء كثيرة لم تكتشفها البشرية إلا حديثاً، ولتفصيل ذلك يراجع كتاب البار المذكور وتفسير «في ظلال القرآن» لسيد قطب.

وما يبدو من ألوان ثمرها وأسمائها وطبائعها قبل أن تنتهي إلى اخرها. ومنها الرصاص والحنطة واللبن وأشياء كثيرة.

وقال آرس لقيصر: «بحق أقول، بحق أقول، إنما وقع الناس في الخطأ لكثرة الأسماء. فأما من عرف أنها ألوان تظهر في التركيب لم يخطىء الطريق».

وسأله أيضاً قيصر فقال: «أنبئني عن هذه الألوان التي تحول من لون إلى لون: أهي من تدابير شتى أم من تدبير واحد وشيء واحد، كلما حدث له لون حدث له اسم؟».

وكذلك قال زوسم ليوثاسيته، وأنا أعلمك أن الحكماء لم يرددوا في القول وكثرة التدابير إلا إرادتهم أن يفهم عنهم أهل الرأي ويعمي عن صنعتهم أهل الجهل. وأخبرك أنهم على كثرة تدابيرهم التي وضعوها وكثروا في كتبهم لا يحتاجون إلا إلى تدبير واحد وعمل واحد. وكذلك جميع كلام الحكماء، وإن كانوا قد خالفوا في الأسماء والوصف، فإنما أرادوا طريقة واحدة وشيئاً واحداً وتدبيراً واحداً وتراكيب وأوزانا وألوانا كثيرة شبهوا بها على الناس. ولم يكذبوا، لأنهم تكلموا على قدر ما رأوه بأعينهم وفهموه بينهم وغاب عن غيرهم.

قال خالد: «إني لأسمع منك يامريانس عجائب، وقولا ما خطر ببالي قط».

قال مريانس: «وكيف يعلم المرء مالم يعلم؟ وكيف يعرف مالم يوقف عليه؟».

قال : «صدقت، وأنا أسألك أن تصف لي لونه كما وصفت عنصره».

قال مريانس: «لولا علمي بأن لك دينا وورعا، وأنه لايجوز ما أقوله لك إلى غيرك ــ إلا لمن هو ثقة في دينه وأمانته، وأنه إذا علمه أشد سترا علمت له وصونا ــ ما فعلت!».

قال خالد: «يامريانس، أظنه سبق إليك سوء ظن فيما أظنه عندي».

قال مريانس: «إنما شأن الحكماء أن يصنعوا شيئهم منه وبه قبل أن يضعوا الرماد ويحمر كما يحمر السيرقون، ومن قبل نفسه يتلون ويلبس البياض والسواد والحمرة والصفرة والخضرة، وهو يتفتت من نفسه ويصدى، ويلبس سائر الألوان المذكورة في درجات التدبير. ومع هذا فهو يتقيأ اللون الذي يلبسه هذه الألوان. ثم يشرب ما تقيأة فينجح الله منه ضعافه كما يخرج من القليل الكثير من الزرع وحب النبات».

قال: فأطرق خالد إلى الأرض طويلا وقال: «إنك يا مريانس لتقول عجبا، وتصف أمراً عظيماً وشيئاً جسيماً».

قال مريانس: «أرجو أن يقر الله عينك بالنظر إلى التدبير فتكون من ذلك أشد تعجبا منك بالوصول، وإلا فاسأل».

قال خالد: «لقد وجب شكرك عليّ بما أوليت وأعطيت من نفسك. وقد وعدت باستتمام هذا الأمر، فلا يثقلن عليك ما أسألك عنه، فإن ذلك اغتباطي بما وهبه الله تعالى ذكره لي من معرفتك، ومنّ به عليّ منك، ولا أطمع في دركه من غيرك، أو من أحد من الناس من بعدك. وقد ذكرت لي العنصر واللون وأحسنت إليّ في ذلك، وأنا أسألك عن مجسة هذا الحجر ووزنه وطعمه وطبعه».

قال مريانس: «أما مجسته فنحاس غير معدني نقي غير دنس، لين

المجسة كثير الرطوبة والسدونة، ورطوبته عند الحكماء أكثر من جسده، وهي العمدة. وأما طعمه فحلو. وأما طبعه فهو شكل الهواء».

قال خالد: «فأخبرني عن رائحته قبل أن يدبر».

قال: «ثقيلة منتنة، وأما بعد التدبير فهو الذي يقول فيه الحكيم: إن الماء يذهب برائحة الميت الذي لا روح فيه، الرائحة المنتنة الخبيثة التي تشبه رائحة المقابر. وفيه يقول الحكيم: من بيّض الروح وأصعدها، وحمّر الجسد بالآلية، وطرد عنه الظلمة، وأخرج منه الرائحة الخبيثة، وأحكم استخراج الروح من الجسد، وأظهر عجائب عند الترويج، كان حكيماً ماهراً.

وفيه قالت الحكماء لمارية حين اجتمعوا عندها: طوى لك أيتها المرأة، إن السر فيك لمكتوم كتما أكثر من ناس كثيرين، ولكن فسري لنا الطبائع المطلوبة، وكيف ينزل الفوقاني إلى السفلاني عند الفوقاني. وكيف يلتقي بعضهم عند بعض فيختلطن، وكيف يجيء الماء المبارك فيسقيهم ويطهرن من الروائح المنتنة التي تشبه رائحة المقابر التي فيها الموتى.

وفيه يقول مرقونس: عرفني ياسنقجا من اسمها، قال: أيها الملك، أف. وتفسد رائحتها، ثم عند التمام تطيب الرائحة ولا يبقي من الكدر والرقودة والذهومة والرائحة الكريهة شيء».

قال خالد: «أخبرني، أرخيص هو أم غال».

قال له: «أقبل على قول الحكيم الصالح إذ يقول: إن عملنا من شيء واحد يكون، فاعقل أيها السامع، وأحدّ فكرك، وإياك أن تحطب في الأشياء الغريبة، واعلم أن الكباريت والزرانيخ والأتربة تحترق وتفسد ولا تلبث، ولا تعمل عملا فيه خير، وأن الزئبق على كل آبق. والعقاقير إذا

شمت النار احترقت، فكيف ترجو خيراً من شيء يدخل النار ويحترق ويصير فحماً والحجارة لا تدخل في الظاهر حتى يصير باطناً، والباطن حتى يصير ظاهراً، وإلا فكف يدك عن كسبك، فإن كل شيء يشترى بثمن فلا خير فيه. وقد بينت لك وأعلمتك الذي يحق لي عليك، ولم يحملني على أن بينت لك ذلك كله إلا رحمة مني للرهبان الذين خرجوا من ديارهم في طلب الصنعة ولأناس قد ضيعوا أنفسهم وأهليهم فيما لا يعود عليهم بنفع. فلا يخدعنك أحد عن رأيك. وإياك والنفقة، فإن العمل التام ليس فيه نفقة ولا يشترى بثمن.

وفي ذلك يقول زوسم لأوثاسيتة: أنا أحذرك أن تغوصي في العقاقير التي تسمى صنعة الذهب. وقال أيضاً: من التمس شيئاً من غير هذا الحجر فهو بمنزلة من أراد أن يصعد سلما بغير درج فسقط على وجهه».

قال خالد: «فعزيز هو أم موجود».

قال له: «هو كما قال الحكيم: هو عند الغني والفقير، والشريف والوضيع، والمسافر والمقيم، وفي الطريق وعلى الزابل يوجد ويوطأ ويحقر. وما أحشم ما احتقرت السفهاء وجهلت، وأكرمت الحكماء وأحبت. واعلموا أيها الحكماء أنه واحد مكتوم مخزون فيه الطبائع الأربع، وهي أقوى الطبائع.

وقالت مارية: إنا كتمنا سرنا عن السفهاء، وآثرناه للعلماء، وسترنا واحد. وبالحق أقول لكم أنه مطروح في المزابل، ولكنه لا يعمل حتى يخرج روحه ويطهر، وترد إليه روحه وتسكن فيه.

وقالت أيضاً: فإنه سر ظاهر عظيم مكنون مرتفع عن الحمقى والسفهاء، معروف عند الفضلاء، فاحفظوه، وفي الحفظ به تقدموا. فإنه

سر مرتفع مكرم، فينبغي أن لا يهينه أحد. إن الله تعالى قد أكرمه، وهو في كل مكان، يلقاه كل أحد من السفهاء. وهو عليهم هين يتنجسون منه، وهو أطهر منهم وأنقى، لأن الله تعالى جعل السر فيه.

قال زوسم لأوثاسيتة: اعلمي أن الله تبارك وتعالى جعل شفاء لكل داء من حقير ما خلق، والناس من ضعف عقولهم وبعد فهمهم لا يصدقونه بالأمر العظيم حتى جعله الله تعالى في الحقير الذليل. ولذلك قالت الأولون: إنا لوصرحنا به وأبديناه وسميناه باسمه ما صدق به الحمقى، جهلا منهم بفضله واحتقاراً به».

قال خالد: «قد بقيت مسألة واحدة، فاحتملنا يامريانس».

قال: «سل عما بدا لك».

قال: «أحب أن تعرفني عن موضع هذا الشيء ومعدنه الذي يوجد فيه إذا احتيج إليه».

قال: فأطرق مريانس طويلا، ثم رفع رأسه وقال له: «نعم. هو ألزم الأشياء لك، وأحفظها لجثمانك، ومتى عدمته مت».

قال خالد: «هل تعرف حجراً يشبهه أم يعمل عمله؟».

قال مريانس: «ما أعرف حجراً يشبهه ويعمل عمله. لأن فيه الطبائع الأربع، وهو يشبه الدنيا وتركيبها. وليس في الدنيا حجر غيره يشبهه في عمله وطبائعه. ولم يعمل حكيم إلا به، ولو التمس العمل من غيره ما استقام له تدبير ولا طاوعه.

والرجال في هذا الأمر على أربع منازل، إما رجل أودعه فكتمه، وهو أهل [لأن][1] يكتم ولا يخبر إلا لمن يستحقه، وإما رجل لايطلب منه

---

(١) في الأصل : أن.

شيئاً، وترك العاقل طلب الحكمة عجز وضعف رأي منه، وإما رجل يتبع من نفسه تدبيراً وعلاجاً، فذاك الهالك المهلك لنفسه. وإما رجل أعمل نفسه وفرغ قلبه لذلك، فصرف همته في كتب الأولين، وواظب على درسها، وأكب على النظر فيها، ووفقه الله لذلك وألهمه إياه. فما انفتح له منها شكر الله عز وجل على ذلك، وما بقي عليه رغب إلى الله تعالى وتضرع إليه. وسأله أن يكشف له ما عجز عن فهمه».

فتلقن خالد منه هذا القول، ولم يزل مكباً على قراءة كتب الحكماء، ناظراً فيها. يقبس بعضها على بعض، ويستشهد لبعضها ببعض. حتى وهبه الله تعالى معرفة ما التمسه.

ثم قال خالد لغالب: «اعلم أنه لا يتعلم علم مريانس إلا العاقل الموفق بالله، وبه أستعين. الزم ياغالب هذا الشيخ، واحفظ ما تراه منه، فإني أخاف أن يهلك قبل أن تأخذ علمه بفضله وجوده».

ثم قال لمريانس: «قد وعدتنا بذكر العمل، فجد لنا بذلك».

قال مريانس: «أول ما أقول لك ـــ وهو ابتداء العمل ـــ أحذرك أن لا تخرج عن الأصل، ولا تطلب بدلا. [فإنك][1] واجد المنفعة والخير أبدا منه لا بذاته. ولا تنقص منه شيئاً. ولا تجعل عليه غيره، فإنه ليس يحمل شيئاً من البدع.

واعلم أنه لابد في هذا العمل من تزويج وتلقيح وولادة وتربية فإذا كان [التزويج][2] كان التلقيح، وإذا كان التلقيح كان الحمل، وإذا كان الحمل كانت الولادة. وليس علاج هذه الصنعة ببعيد عن خلق الإنسان،

(١) في الأصل : قلت.
(٢) في الأصل : التروج.

وذلك لأن خلق الإنسان غير صنعة النبات وما اشبهه، لأن النبات شيء عليه شيء [وأن][1] الإنسان لم يك شيئاً. وكان من المادة اليسير النزرة شيء كثير جليل خطير. [والإنسان][2] يحول قبل تمامه من حال إلى حال وينمى حالا فحالا، ويسند من شيء إلى شيء آخر، ويكون خلقاً بعد خلق، ويتهيأ بعضه من بعض، ويوماً فيوماً وشهراً فشهراً حتى تكتمل مدة معلومة وأياماً معدودة. وإن كان الله تعالى قد أكمل خلق الطبائع كلها في النطفة فجعل لها مدة لا تكمل إلا فيها ولا تتم إلا عند تمامها، [فكذلك][3] هذه الصنعة إنما هي سر من الأسرار الربانية، لم يكن أحد يعلمها لولا ما علمهم الله جل ذكره ذلك.

وقال حكيم: اعلموا أنكم كلما غسلتموه كان أنقى له وأجود. وإن لن تغسلوه وتنقوه لم يرجع إليه لونه.

وقال حكيم آخر: إن النحاس وإن صدىء لم يخرج عن طبيعته الأولى، ولونه مثل الأركان التي تقطع الأصول من وجه الأرض. والأصل قائم في الأرض، يعود في النبات على حاله، كذلك نحاسنا ثابت بطبعه ولونه.

وقالت مارية: إن النحاس لم يقدر أحد أن يذهب بظله، وتكرار الزئبق غطى نوره في أول الطبخ، فلونه وبيضه، ثم عطف على الزئبق في آخر الأمر فحمره.

فهذا قول جميع الحكماء أن النحاس يذهب لونه في التدبير، ثم يعود

---

(١) في الأصل : وذلك أن.

(٢) في الأصل : وذلك أن الإنسان.

(٣) في الأصل : وكذلك.

إليه. وكما لايقدر أحد أن ينتزع جميع الشهوات من جسد الإنسان، كذلك النحاس لايقدر الزئبق على تغييره وإذهاب لونه إلا في رأي العين فأما في الباطن فلونه باق تام.

فأما النحاس فإنه يذهب ببياض الزئبق، ويحيل لونه إلى الحمرة في الخبر والمنظر حتى لا يعود إلى حاله الأولى ولونه الأول أبداً، لأن للنحاس قوة عجيبة تظهر على الألوان كلها إذا كانت الألوان مغسولة قد ذهب عنها سوادها ووسخها وابيضت، فعند ذلك يجد النحاس السبيل إلى تحميرها.

وقال زوسم: اعلموا أن عملنا إنما يكون منه وبه، وكل صنيع إنما يجتمع من مثله.

وقال اندريا: وأكثر لكم الأمثال [لتفقهوا][1] أن عملنا أوله يدخل على آخره، وآخره يدخل على أوله. وإنما هو شيء واحد: أب وأم قد غذياه وربياه، فهو فيما بين ذلك نشأ[2].

وقالت يوثا سيته لروسم [فقالت][3]:أخبرني، هل يصنع الجنس بالجنس؟ قال لها: نعم، وما يجتمع منه يصب فيه واعلمي أن الله تعالى خلق الأشياء كلها، وخلق الإنسان عجبا. وأعجب منه الحجر الفرواني الأرجواني، فإن من هذا الحجر جميع الطبائع التي تلتمسها الحكماء وتطلبها. فهو يشبه النحاس، ويشبه الأبار المحرق وباقي الأجساد. فإن اصبتموه فانزعوا روحه من جسده، فإنه ينتقل من طبيعة إلى طبيعة أخرى، وليس نور مضاف إلى نوره.

(١) في الأصل : لتفقفوا.
(٢) في الأصل : هما.
(٣) وردت هكذا بالأصل وأقترح حذفها.

واعلم أيها الأمير أنه لايضيع شيء مما خلقه الله إلا مثل لونه ومثل شبهه. ألا ترى إلى حبة القمح كيف تقع في الأرض فتموت وتلين وتعفن، وتسود وتخضر وتبيض، ثم ترجع إلى جوهرها الأول كذلك جميع ما خلق الله من النبات والحيوان. أوله مثل آخره، وآخره مثل أوله. ومن أجل ذلك قالوا: إن الإنسان لا يلد إلا إنساناً والقمح لايخرج إلا القمح.

وقال هرمس: خذ الحجر الأحمر ظاهره، والبياض عنصره. فأديموا عليه السحق حتى يظهر منه ما خفي على الناس من خيره، وهو ما بقي.

وقال زوسم: إن عملنا من الياقوتة الحمراء التي أخرجت من بيضة الحكماء، وسميناه العصفر.

فهذا الحجر أيها الأمير يحترق بذاته من غير حاجة منه إلى غيره، ولا يختلط به سواه. فهو يحرق جسمه كما يحترق العود، يصير فحما أسود، أويبيض كما يبيض به. فاكتف بما قلته لك.

ويقول زوسم: إن المصورين إذا أرادوا أن يصبغوا أيّ لون أرادوا أخذوا من الأجساد والأعشاب ما يشاكل ذلك اللون وصوروا به منه وكذلك صنعتنا هذه الرفيعة، إنما شبهناها بالمصورين الذين يأخذون أيّ الألوان أرادوا أن يعملوا منه صبغاً يصبغون به ما يشاكلون بمثل ذلك اللون. فالصبغ إنما يخرج منه لون مثله [بقوله][1] أن نحاسهم وإن كان أحمر في أول الأمر فإنه لا ينتفع به حتى يصير أبيض.

وقوله لأوثاسيتة: إننا قد نفينا السواد، وأنشأنا البياض بالملح والنطرون، والذي هو بارد رطب، وعند ذلك سميناه بوريطش.

---

(١) هكذا الأصل : ولعل الأصح، يعني بقوله.

وتصديق ما ذكره روسم قول هرمس: إن بدء الأبار سواده، وعند ذلك التبييض بالملح والنطرون. لأنه كان في بدء أمره أحمر، وصار في آخر الأمر أبيض قد ذهب عنه سواده، ثم يصير أحمر مشرقاً.

وقالت مارية: إن النحاس إذا أحرقته بالكبريت، ورددت عليه الرطوبة حتى يتهدم، ذهب ظله وسواده، وصار ذهباً مرتفعاً خيراً مما كان.

وقال زوسم أيضاً: إن النحاس إذا أحرقته بالكبريت، ورددت عليه الرطوبة، وصنعت به ذلك مراراً كان أحمر مما كان بإذن الله تعالى.
وقال غيره: إن أبار نحاس الحكماء إذا طبخ وصفي كصفاء أعين الحيتان فأخذ خميره [أيقنوا][1] أنه يرجع إلى طبيعته الأولى، ولو بقي الحكماء على إظهار السر لما أحاطت إلا بما استودعها الله من أسرار الكائنات في مستأنف الأزمنة. ولكنها وضعت الأشياء علم الله الذي لم يره أحد، ولا يدري كيف يكون.

وقد عرفتك أن الصنعة ليست ببعيدة من خلق الإنسان، لأنه لم يكن مولوداً قط من حيوان ولا نبات إلا بتعفين وتشميع وفساد في رأي العين. كذلك هذه الصنعة إنما ملاكها في أول أمرها التعفين والتمشية. ولذلك قال الحكيم: إن لم يعفن لم يتماش، ولو لم يتماش لم ينحل، ولو لم ينحل لم يبيض».

قال خالد: « فما يكون بعد التعفن؟».
قال: «العلم الذي يتم به الله التركيب بالمطلوب. وأعلم أن لهذه الصنعة عملين، وهما تركيبان. وعند الفراغ من التركيب الأول يصلح للتضاعيف، وعند الفراغ من الثاني يكون التمام بإذن الله ومشيئته».

(١) في الأصل : وأيقنوا.

قال خالد: «فما هذا التركيب الذي ذكرت أنه به يتم الأمر؟»

قال مريانس: « إنه تركيب لهو هو أصلح الله الأمير التركيب والبدء. ولكنه التركيب الذي سئلت الحكماء شدة معرفته. لأنه من أصاب عمله فقد أصاب العمل كله، ومن لم يصب فليس يعرف من العمل شيئاً».

قال: «فما هذا التركيب العجيب؟».

قال مريانس: «هو كما قال الحكيم: اقلب الطبائع، واخلط الحار بالبارد، والرطب باليابس، والتدبير اللطيف».

قال خالد: «فما يكون أحكم [ما][1] يكون باليد؟».

قال مريانس: «هو كما قال الحكيم: إن الزئبق والنار يحسنان على غر النحاس، ويطردان الظلمة عنه. وقال غيره: إن أحسنت مقادير نارك فإن الزئبق والنار يكفيانك العمل إن شاء الله تعالى. كما قال الحكيم: أنشبوا القتال بين النحاس والزئبق، وأحرقوا المصاحف قبل أن تحرقوا قلوبكم»[2].

قال خالد: «ما تزيدني بما تعرفنيه إلا تعجبا، فهل قبل التعفين عمل تدبير؟»

قال: «نعم، تدبير وليس تدبير».

قال خالد: «وما ذلك التدبير؟».

قال: «استنباط الماء من الأرض، وإرساله عليها. لأن الماء يعفن، والماء يغسل. فإذا أحكمت غسلها فقد أحكمت العمل كله وأدركت بغيتك. وهو تدبير أهل العلم والمعرفة.

واعلم أنك إن لم تحكم علاج الجسد الوسخ حتى تنقيه وقد حل الروح فيه ــ حتى يقع فيه الصبغ وهو نقي طيب الرائحة ليس فيه

(١) كلمة (ما) لم تر بالأصل : وأضفتها من عندي.

(٢) قوله: وأحرقوا المصاحف الخ. لعله مَثَل عند اليونانيين أو الأقوام الأخرى.

وسخ ولا نتن ــ فإنك لم تحكم من العمل شيئاً. واعلم أن الروح سريعة المشي في جسدها، وإن كلفتها المشي في غير جسدها لم تجب إلى الدخول فيه».

قال خالد: «فاذكر العلاج الثاني إن كان [فيما ذكرته تمام العمل الأول](١).

قال: «نعم. إذا أحكمت علاج هذا الجسد، فأدخل بعد ذلك من الخمير ربع جزء من خمير الذهب، ومن خمير الخمير ما يصلح. واحملهم على الطبخ في الشمس، حتى إذا صاروا شيئاً واحداً وجسداً واحداً جافاً فابدأ على بركة الله وعونه في الغسل. وهو أن تصب على جزء من السم وتطبخه به مليا.

وانظر لاتنقص من أيامه شيئاً، ولاتغفل أمر النار فتهلك وتطفيء نارها، واحذر شدة النار فتهلك، فذرك وتنظر على ما فيها مما يرجي خيره ونفعه. ثم اعمل إلى قدرك بعد سبعة أيام إلى الأكسير، فإن كان قد شرب الجزء الذي جعلته فيه من السم فاسقه جزءاً آخر من بياض البيض الفلسفي، وزد في قوة نارك قليلاً حتى يشرب اليابس الرطب. فإذا عاد إلى الثلثين فاسقه من الماء النقي كما فعلت به من قبل ذلك. وافعل به ذلك من السقي والطبخ حتى يستوعب شرب جميع ما كان تقيأه من الماء ولا يبقي منه شيء.

فعند ذلك تظهر الأزهار، وتختلف الألوان، ويلبس الأكسير لباس الملوك، ويستلذ العذاب، ويصبر على الحر الشديد أحدا وعشرين يوماً. وهذا كله موجود في كتب الحكماء فاطلبه، فإنك تجده بينا واضحاً مشروحاً بإذن الله تعالى.

(١) في الأصل : إذا كان ماذكرته في تمام العمل الأول.

فاكتف بقولي هذا أيها الأمير أرشدك الله ولا أبعدك، فإنك تدرك مطلبك، وتنال من الدنيا حاجتك».

قال خالد: «فهل فرغ تدبير الأكسير، أو بقي منه شيء لم تخبرني به؟»

قال: «قد فرغ لمن أحب الاختصار. فأما من أحب الفاتر فليسقه من الماء الخالد يكون معداله وعنده، فإنه يزيد صبغة وقوته. ومالي أكثر عليك أيها الأمير. اعلم أنه يزيد في صبغه بلا نهاية، ويشرب كلما تسقيه بلا نهاية».

فعجب خالد من ذلك طويلا. ثم أقام مريانس عند خالد إلى أن نظر إلى العمل عيانا. وبلغ من العلم فهمه، فرفض الدنيا، وانحاز عما كان فيه أبوه وجده من أمر الخلافة. وبنى له خارج مدينة حمص قصراً هو معروف إلى هذه الغاية بقصر خالد. وأفنى عمره منفرداً، ولحق بمن مضى من الأجيال. وقبره خارج باب حمص المعروف بباب الرستن، بالقرب من قصره.

ونسأل الله تعالى أن يجود علينا بعفوه وعافيته، وجزيل عطاياه، ومواهبه المؤبدة لنا بالطاعة، والفائدة إلى رضوانه، وما يحب من عفوه ورحمته. إنه خير مسؤول.

وبعد فإن مريانس قد بين في هذه الرسالة وستر، واتبع مذاهب الحكماء، ونطق بكلامهم. والخير كله، يؤتيه ما يشاء والله ذو الفضل العظيم.